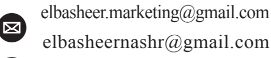

أذنٌ جائعة

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

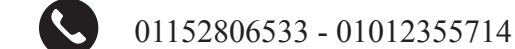
اسم الكتاب: أذنٌ جائعة
التأليف: د. شادن شاهين
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
موضوع الكتاب: مجموعة قصصية
عدد الصفحات: 160 صفحة
عدد الملازم: 10 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/ 25832
الترقيم الدولي: 978-977-278-794-4







elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714



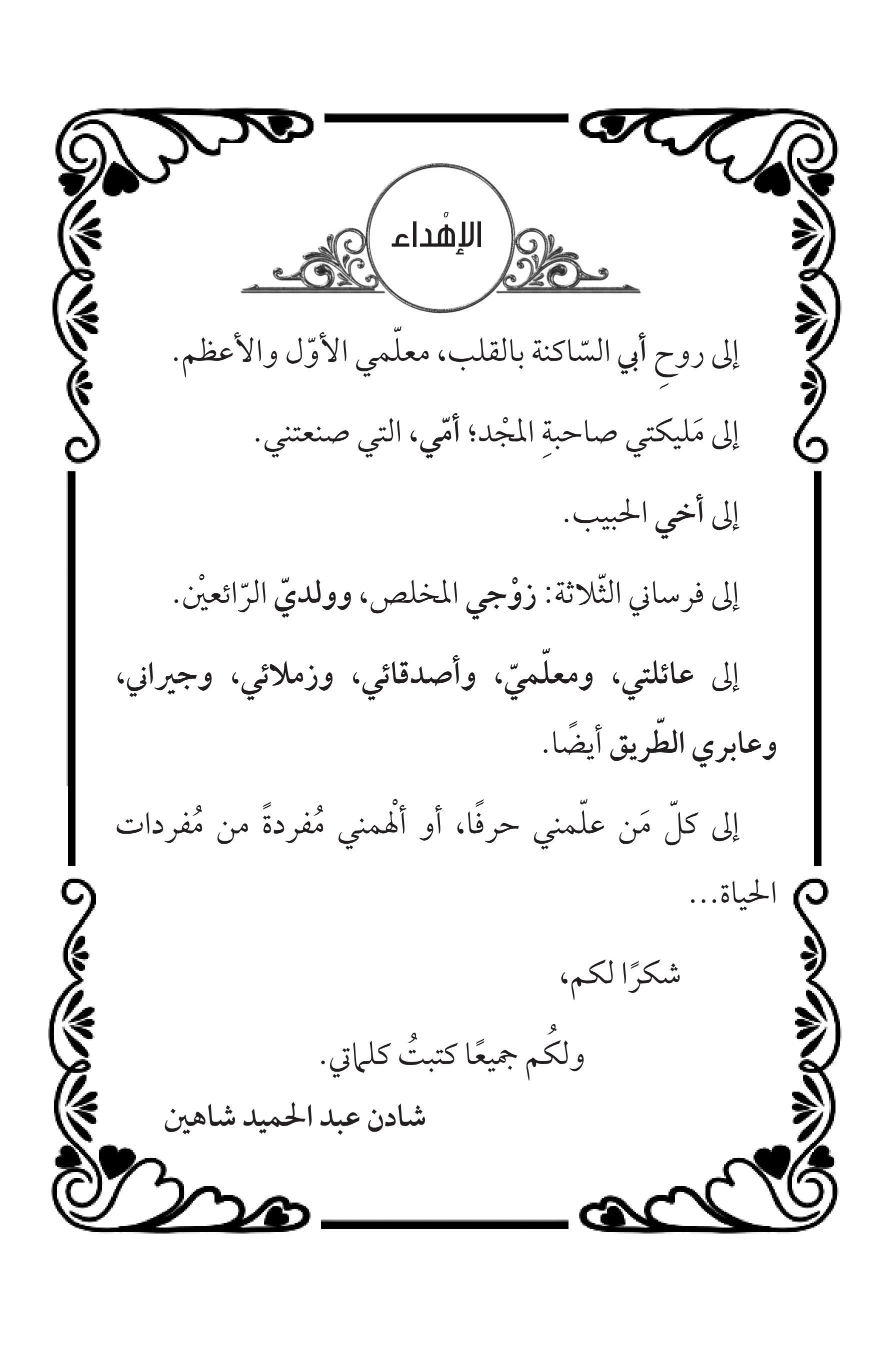
أذنٌ جائعة

مجموعة قصصية

د. شادن شاهين

دار البشير للثقافة والعلوم





الإهْداء

إلى روحِ **أبي** السّاكنة بالقلب، معلّمي الأوّل والأعظم.

إلى مَليكتي صاحبةِ المجْد؛ **أمّي**، التي صنعتني.

إلى **أخي** الحبيب.

إلى فرساني الثّلاثة: **زوْجي** المخلص، **وولديّ** الرّائعيْن.

إلى **عائلتي، ومعلّميّ، وأصدقائي، وزملائي، وجيراني، وعابري الطّريق** أيضًا.

إلى كلّ مَن علّمني حرفًا، أو ألْهمني مُفردةً من مُفردات الحياة...

شكرًا لكم،

ولكُم جميعًا كتبتُ كلماتي.

شادن عبد الحميد شاهين



أبيض وأسود

مرَّ أربعون عامًا ولم أرَه، كنتُ أتابع أخبارَه بشغف، رغم أنّي لا أعرف إنْ كان حقًّا يذْكرني.

هل يمكن أن يحملَ قلبٌ حبًّا أسطوريًّا لَمَن لا يذكره؟! لا أعرف، عمومًا لا يهمّ؛ المهمّ أن أراه.

تحاملتُ على نفسي، استندتُ إلى عكّازي، واتّجهتُ إلى المرآة، مررتُ أصابعي على قَسماتِ وجْهي، أحاولُ أن أمسح عنْها رتوشَ الزّمن، لا بأس؛ لستُ عجوزًا جدًّا.

تسلّلتُ بخفّةٍ إلى حجرةِ ابنتي، نظرتُ حولي بحذر، استدرت، وتراجعتُ بظهري ناحيةَ الخزانة، سحبتُ الأدْراج بخفّة، وراحتْ أصابعي تعبث بسرعةٍ بين أدوات الزّينة، أطبقتُ على بعضها، دسسْتُه بسرعةٍ في جيب جلبابي، أعدتُ الأدْراجَ إلى موضعها، وعدتُ مسرعةً إلى حجرتي.

أغلقتُ الباب بالمزلاج، تنفَّستُ الصُّعَداء، وأسرعتُ ناحية المرآة، طليتُ وجهي بكلّ ما وقعتْ عليه يدي من مساحيق، ورسمتُ عيني بإتقان، فهكذا كان يعشقهما.

وأخيرًا ارتديتُ غطاءَ رأس ملوَّن؛ أخفي به بياض شعري الذي طالما أسْكره سوادُه، ارتديت أجملَ فساتيني التي هجرتُها منذ سنين لا أعرف عددَها،

تمَّمْتُ على مظهري في المرآة، وقررتُ الخروج بلا عكازي، فالرَّشاقة تليق بالعاشقات.

وبالفعل نزلتُ إلى الشارع، وسِرتُ كما لم أتوقَّع أبدًا، بدا لي جسدي خفيفًا كريشةٍ، وابتسامتي تعرف طريقها جيدًا إلى شفتي.

أشرتُ إلى سيارة أجرة، وانطلق بي السّائق إلى حيث تركت قلبي منذ أربعين سنة، كان في عينَيِ السّائق نظرةُ سخرية أفهمها جيدًا، لكن كيف له أن يفهم أنّ المرأة عندما تَعشق يسقط عنقُ الزّمن فجأة على نَصْل عشقها؟

تجاهلتُ نظراته الخبيثة، وسرحتُ في لقائي، ذلك الذي تأخَّر عمرًا

تُرى هل سيذكر ملامحي؟ ترى هل سيذكر موجة ذائبة في بحر عشقٍ عصيٍّ لا تثيره الرياح، حتى أتى فتنفس فيه، فبعثها؟

تبخَّرتْ من ذهني فجأة كلّ الصور القديمة حين صرختْ عجلات السّيارة على الأسفلت الملتهب، لتعلن وصولي إلى أرض الميعاد.

رمقني السّائق بابتسامةٍ ذات مغزى وأنا أمدّ يدي إليه بالنقود، ضحكتُ بسخرية، ونزلتُ بثقة.

صعدتُ درجات البيت، وصدري يضيق حرجًا! لا أعلم ما الذي أتى بي إلى هنا؟ يا لي من عجوز مخرّفة! ترى هل صدّقت حقًّا أنّه يذكرك؟! هيَّا عودي من حيث أتيت أيتها الحمقاء.

حاصرتني الأصواتُ تطالبني بالتراجع، لكنّ قلبي يدفعني دفعًا إلى التقدم، قاومتُ كلّ مخاوفي، وقررتُ أن ألقي عليه نظرة أخيرة مهما كان الثّمن، وما أغلاه ثمن العشق!

طرقتُ الباب بأناملَ مرتعشة، فتحتْ لي الخادمة، ونظرتْ إليَّ بلا مبالاة، سألتُها عنه، أشارتْ ببرود إلى اتجاه حجرته.

توجّهتُ إليها وأعصابي في حالة انهيار، لكنني عاجزة عن مقاومة ذلك المغناطيس الذي يجذبني إليه، دلفتُ إلى الحجرة كمَن يطأ الأشواك بقدم عارية، فوجدتُه مسجًّى على الفراش، وعلى جبينه نورٌ لم تنسَه الروح، كان مغمض العينَيْنِ، ساكن الجسد.

تقدّمتُ، جلستُ بجوار الفراش، تمالكتُ أعصابي ولمستُ يده، لم يرفع عينَيْه، تشجّعتُ أكثر فاحتويتُها بكلتا يدي، وقبّلتُها مودعةً إيَّاها قطعة من روحي، لاحظتُ أنّ يده باردة، سرت في جسدي قشعْريرة أكثر برودة، تحسّستُ نبضَه في لهفة، لكنه قد فارق الحياة!

يا الله، لِمَ الآن؟!

لِمَ يفارقها حين قررتُ أنْ أخبرَه أنّني مازلت أحبُّه؟! لِمَ يفارقها دون أنْ أسألَه إذا ما كان يذكرني؟

انهمرتْ دموعي الصّامتة على كفِّه حتى أزحتُها برفق، وقفتُ لأتركه للمرّة الثّانية والأخيرة، لمحتُ شيئًا في قبضته الأخرى، انتزعتُه بفضول، فإذا بها صورتي أبيض وأسود.

خيط رفيع

صوتٌ في الردهة أقلقَ نومَها، نهضتْ مِن فراشها على رجلين مرتعشتَيْن، فتحتْ بابَ حجرتها بحذرٍ شديد، وتسللتْ إلى الخارج، جالتْ ببصرِها تحاولُ أن تخترقَ حجبَ الظلام، فإذ بشبحٍ يظهر لها فجأة، صرختْ صرخةً مكتومة وهُرِعتْ إلى حجرتها تُسابقها قدماً الغريب.

دلفتْ إليها بسرعةٍ وأغلقتِ البابَ في نفسِ لحظةِ لحاقِه بها، أدار المقبضَ بينما تديرُ هي المفتاح.

فتحت عينيها، تنفستِ الصعداء، جففتِ العرقَ الغزيرَ على جبهتها

- نفسُ الحلم مرةً أخرى.

نهضتْ من فراشها، أسرعتْ إلى الحاسوب، بحثتْ في تفسيرِ الأحلام، انهمكتْ في التنقلِ بين مواقعِ الطبِّ النفسي تارةً ومواقعِ المفسرين تارةً أخرى.

تعبتْ من القراءة، أغلقتِ الحاسوب، عادتْ إلى فراشِها وحاولتْ أن تنامَ مرةً أخرى.

تقلبتْ في فراشها عدّةَ مراتٍ قبل أن تسمعَ صوتَ مفتاحٍ يُدار في بابِ الشّقة، نهضتْ ببطءٍ شديدٍ عاجزةً عن السيطرةِ على أنفاسِها المتلاحقة، خرجتْ إلى الرّدهة، فإذا بشبحٍ يُشبه ذاك الذي رأته في الحلم في نفس اللّيلة!

جرتْ بسرعةٍ إلى حجرتها، أغلقتِ الباب وأدارت المفتاحَ في اللحظةِ الأخيرة.

فتحتْ عينيها، انهمرتْ دموعُها وهي تمسكُ برأسِها وتردُدُ:

- إنّه نفسُ الحلم.

وفي اللّيلةِ التاليةِ قررتْ أن تنفّذَ الخطةَ التي قرأتْها على الإنترنت لمواجهةِ خوفِها، توجّهتْ إلى فراشِها وعلى شفتيها ابتسامةٌ خبيثة.

وقبيل الفجر، سمعتِ الصوتَ في الردهة، رددت بصوتٍ واثق

- إنّه الحُلْم.

ازداد الصوتُ عُلوًّا، وكأنّ أحدَهم يحاول كسرَ الباب، لم تهتزّ لها شعرةٌ، رددتْ بسخريةٍ:

- أعلمُ أنّه الحلم.

بعدَ قليلٍ اختفى الصّوت، ضحكتْ في زهوٍ شديد:

- انتصرتُ أخيرًا عليكَ أيها الحلم السخيف.

وفي الصّباح، وجدوا جثّتَها!

وكان أكثر ما حيَّر المحقّقَ هو: كيف نجح اللصّ في كسرِ الباب بذلك العنف دون أن تنتبهَ الضّحية!

لا شيء هناك

عندما قرّرتُ أن أرسم تلك الليلة، لم أكن أعرف بالضبط، ما الذي أريد رسمه، لكنّني كنت قنبلة حبٍّ موقوتة، اختارت أن تنفجر على ورقة بريستول.

رفعتُ شعْري لأعلى بمشبكي الذّهبي، وتلفّعتُ بتلك العباءة البدوية الواسعة زاهيةِ الألوان، فحملتْني من فوْرها إلى قلب الصحراء، حتى استشعرتُ رياحَها الباردة الجافّة تلطمني بوحشية، هكذا كان مِزاجي، ولهُ استسلمت.

لمستُ زرّ إضاءة مرسمي الصّغير، فغشى عيني الضوء الباهر، وكأنني مررتُ عبر أنْبوب فجأةً إلى عالم آخر.

شَرعتُ نافذتي على مصْراعيها، نظرتُ، فخرّتْ عيناي خاشعتين أمام هيبةِ الظلام، ونجمةٍ وحيدة شامخة تبتسم في غموض، وترسل جدائلها الفضيّة بدلال لتطوّق بقعةً من الكون، تحويني وحدي.

شمّرتُ عن ساعدي، والتقطتُ فرشاتي كمجرمٍ على بُعد خطوة من اقتراف جرمِه الأوّل.

ألفيتُ الفرشاةَ ترتعد بين أصابعي، لم أحاول أبدًا السّيطرةَ على تلك الرّعدة، بل بدأتُ أمدّ خطوطي المهتزّة بإصرار، فلا ضيرَ إنْ ظهرتِ الوجوه في لوحتي مزدوجة، ولا ضيْرَ إنْ ظهر الطّريق اثنين.

لا ضيرَ إنْ شبّ على سطح البحيرة حريق، ولا ضيْرَ إن تداخلت مساحاتُ الألوان الصّريحة، فوُلدت بينها مساحاتٌ غامضة، مجهولة النّسب، شائكة المعنى... وهل عالمي إلّا ذا؟!

ورسمتْ رعْداتُ أصابعي إعصارًا، وبلا استئذانٍ انسلّت روحي المتعَبة لتلفّ معه، كان يلفّ ببطء، بطء شديد، يحبسني داخلَه ويدور، لم يبدُ أنّ مشكلتي أنْ أنفكّ من براثن الإعصار؛ إنّما مشكلتي أنه يدور ببطء، فأنتظرُ النهاية ببطء، وذلك فظيعٌ جدًّا في الحقيقة، ليته يدور بسرعة شديدة حتى أفقدَ الوعي، أو أحترقَ داخله، أيّ نهاية ترضيني، المهمّ أن تأتي النهاية... وبسرعة.

هكذا شعرت، ولم تجدْ مشاعري أيَّ صدًى لدى القدر، فبقيتُ أنزف روحي ببطء على ورقةِ بريستول، قطرةً قطرة، ولكلّ قطرة سقوط، له دويّ كالرّعد، أسمعه وحدي.

ودارتْ ساقيةُ اللّيل، ومازلت أمدّ فرشاتي لأرسم وجهَ الحياة، ذلك الذي نعرفه ولا نعرفه، نسلّم له أرواحنا طواعية، ونقنع أنفسنا في كلّ مرّة أنّ هذه قصّة مختلفة، لا تشبه سابقيها، ونتوقّع نهاية مختلفة، ونستمتع- بسذاجةٍ- بكلّ تفصيلةٍ وكأنّنا أوّل مَن فعلناها، وكأنّنا لسنا دمًى ولا نسخًا مكرّرة على مسرح الحياة.

لا أحدَ يصدّق النهاية المحفوظة، وهذا هو سرُّ استمرار العرض المذْهل، بلا ملل.

مدّ الفجرُ شعاعه الهزيل بين سحبِ الليل، فوضعت فرشاتي.

لم تكنْ لوحتي اكتملت، لكنْ ها هنا اكتفيت. قرّرت أن أترك تلك المساحاتِ البيضاء لتتحدّث عن نفسها، حتّى لو كذبًا، فحتى الزّيف وجهٌ من وجوه الحياة، وعلى كلّ حال، على العرض أن يستمرّ.

شقّ سكونَ العرض الخاصّ رنينُ الهاتف، رفعته إلى أذني..

ألو.

أهلًا.

كيف حالك؟

بخير.

هل تحتاجين شيئًا؟

لا.

حسنًا، أراكِ لاحقًا.

وأغلق الهاتف.

لقد قام بالواجب، أطلقتُ ضحكةً طويلة تحمل مرارةَ عمرٍ كامل.

وفي الصّباح، نسيت اللّوحة، وأصابعي المرتَعِشة، ومكالمة الفجر، وانطلقتُ إلى عملي.

لم يكنْ شيء هناك، مجرّدُ أرض خالية من أيّ ملمح من ملامح الحياة، ليس بها سوى بضع مئاتٍ من البشر، وبعضِ الجدران المزينة، والكثير من الضّوضاء المثيرة للجنون، وآلاف الملفّات.

وهناكَ امتلأ رأسي بحروفٍ تراكبت في أحاديثَ عن تصاعد سعر العُملة، وتعليمات المدير الجديدة، وتفتيش الأسبوع القادم، وانتخابات النّقابة، وفيلم الموسم، وأسعار المانجو، وقانون المرور الجديد.

ليس لديْك الخيارُ حين تهبّ عليك رياح الواقع بعنف، فتستسلم لها، وتهبط هبوطًا اضطراريًّا، ربّما على أرضٍ لا تصلح أبدًا للهبوط، لكنّك ستهبطُ بأيّ شكل في النهاية.

وانتهى اليومُ ككلّ يوم، وعدتُ لمنزلي في المساء، وكان أوّلُ ما فعلته أنْ أضأت زرَّ مرْسمي، وألقيت نظرةً على لوحتي، أبحثُ عن نفسي بها، ربّما أنا هناك، ربّما أنا ذلك الخطّ، أو ظلّه، ربّما لون، أو مساحة بيضاء، أو ما جرَفَه الإعصار، أو الإعصار نفسه.

لا أعرف بالضّبط، ربّما أنا هناك، وربّما أنا لا شيء، فلا شيء هناك.



كومبارس

"انهالتْ دقّاتُ السّاعةِ على رأسي فكسرت تلك الأقفالَ القديمةَ لتفتحَ أبواب سجون مُوصدة في رأسي منذ عصور. انطلقت العصافيرُ خارجةً من الأبواب تموء كقططٍ جريحة، إنّها تطمعُ بالتهام فُتاتِ أفكاري وبقايا ذاكرتي الملقاةِ خلفها.. لا مانع، لكنْ ألَا يخبرها أحدٌ أنّيَ أكره أن أُلتَهَم وثلجُ الشّمسِ يُجمِّدُني؟! لماذا لا تنتظرُ اللّيلَ فتلتهم فُتاتي وقد حمّصه تنُّورُ الغربة؟! حين يحاصرني صمتُ الكونِ، وتضغطُ أضلعي جنباتُ قبرِ مدينتي الكبير.. حين يضحكون فيبلّل قلبي دمعاتُهم، حين يتغامَزون عن صمتي الدّائم وعقلي لا يكفّ عن الثرثرة، حين يبتسمون في وجهي كحيّةٍ رَقْطاء انتهتْ لتوِّها من التهامِ فريستها، حين يربّتون على كتفي فتتراقصُ في مُقَلِهم أشباحُ السّخرية، حين يردّدون عباراتٍ مُبهَمة ويطرقون بمخالبهم رأسي...

سيكون ذلك هو الوقتَ المناسب لالتهام أفْكاري ساخنةً، وقد خرجت منتفخةً شهيّة من تنّور رأسي".

توقّفتُ عن الكتابة حين دخل أبي إلى الحجرة متلفّعًا بعباءته الصّوفية السّوداء، بدا لي في الضّوء الباهت الذي يأتي من خلفه كدراكولا حقيقي، أنار المصباحَ الكبير بتلقائية، أفلتّ القلمَ في حركةٍ عصبية، وضعتُ كفّي بسرعة أمام عيني، وصرخت فيه:

: منننننن فضضضضلك أططططفئ الممممصصباح.

أطفأه أبي بسرعة، ثمّ قال بصوتٍ خفيض:

: أما زلتَ لا تتحمّل النورَ يا ولدي؟

تحسّست كتفي وذراعي في توتّر وقد بدأت جبهتي بالتعرّق، ابتلعت ريقي بصعوبة، وهززتُ رأسي في حركةٍ لا معنى لها.

اقتربَ والدي ثمّ ربّت على كتفي بحنان وقد ترقرقت الدّموع في عينيه: : لا تيأس؛ الأيّام كفيلةٌ بكلّ شيء.

قالها وغادرَ الحجرة مسرعًا وهو يحاول إخفاء دموعه، تلك التي لا تحرّك في قلبي شيئًا، لم يعدْ بقلبي مكان لتلك الترّهات، فمَن ذاق طعم الخوف حتّى الذّوْب، أو ربّما حتّى التحجر؛ لا يمكن أن يعرف طعمَ الشّفقة.

ارتعدتْ أصابعي حين أطلّ في ذاكرتي الوجهُ القبيح، وتردّد صوته الخشنُ في أرجاء نفسي، حروفُه اللّزجة، لكنتُه الغريبة، صدى صوته الذي كان يتردّد ألفَ مرّة في أفق الذّل، السّارية الخشبية المتآكلة، والحبلُ الغليظ، ربّما لن تنمحي علاماتُه من جسدي أبدًا، أصوات الصّراخ التي تملأ القبْو المظلم، ورائحةُ الموت الرّاكدة، والأجساد التي لم يرحمها الموت.

الكلبُ الأسود الضّخم ذو الطّوقِ المعدنيّ الصّدئ، الذي كان يسيل لعابُه لمرآي، ثمّ يسير بتؤدَةٍ نحوي، وفي عينيه نظرةُ تشفٍّ، منتظرًا في ثقة تلك اللّحظة التي سوف يُترك فيها الحبل، لم يكن ينبحُ أو يقاوم سيطرة ذلك الحبل؛ إنّه يفهم صاحبَه جيدًا، مسألة وقتٍ ليس أكثر، دقائق وتقدَّم له وجبتُه المفضّلة دون حاجةٍ للنّباح أو المقاومة، لا لإشباع بطنه؛ بل لإشباع غريزة الوحشيّة،

الإرهاب، الاستمتاع بلون الدم وموسيقى الانهزام والسّقوط... تلك لعبتُه المفضلة.

لا أعرف بالضّبط، هل جُبل على ذلك؟ أم أنّ تربيته في معقل الشر غيّرت طبيعتَه الحيوانيّة البسيطة، وجعلته يشبه البشرَ إلى حدٍّ كبير!

على كلّ حالٍ أنا لا أكره ذلك الكلبَ أبدًا، رغم كلّ ما فعله بي، هو في النّهاية مجرّد ترْسٍ في عجلة نظام لم يصنعه، ولا رأي له فيه، لكنّ كرهي الكبير في الحقيقةِ لإنسانيتي، تلك التي جعلتني ضحيّة، ما أقبحَ أنْ تلعب دور الضّحية طوال الوقت على مسرح الحياة، كومبارس، يبكي أكثرَ مما يتكلّم، لا يفهم ما يجري بالضّبط في أحداث المسرحية، كلّ ما يدركه بوضوح أنّ عليه أنْ يبكي طوال الوقت ويتحسّس بقايا إنسانيّته ليعلم العالمُ أنّ الشرّ ينتصر رغم أنف الكلاسيكيات التي أشبَعتنا نهاياتٍ انتصر بها الخير، ليخرج المشاهدون من المسارح والسّينيمات وقد ملأهم الشّعورُ بالرضا، ذلك الذي يجعلهم لا يندمون على أثمان التّذاكر الباهظة.

مسرحيتي أنا واقعيّة وقِحَة، كنت أتمنّى لو لعبتُ فيها دور البطولة، دور الكلب.

نزلتُ إلى الأرض على أطرافي الأربعة، حاولتُ تقليدَ صوت كلب شرس يحوم حول ضحيّته، فتح أبي البابَ فجأة، ونظر لي بذهول، هجمتُ عليه في حركةٍ مباغتة وعضضتُ ساقَه بكلّ قوّتي حتى سالَ دمُه، صرخ أبي من الألم.

أفلتّ ساقه، مسحتُ- بلذّة- الدّماءَ السّائلة على زاوية فمي، وانخرطتُ في نوبةِ ضحكٍ هيستيري طويلة.

"ممما أررررروع دددور البببطططولة".

مرايا

ارتديتُ فستاني الأسود ذا الكمّين الطويلين والياقة العالية، عقصت شعري للأعلى وزيّنته بزهرتي البيضاء المفضّلة، دسست قدميَّ في حذائي الأسود اللامع ذي الكعب العالي الرّفيع، تيقّنت من مظهري الدّرامي المتقن، وقرّرت النزول.

كانت السّاعةُ الذهبية تدقّ معلنةً الثانيةَ بعد انتصاف الليل، وراح البندول الذّهبي العتيق يتراقص يمنةً ويسْرة مُصْدرًا صوتًا خفيضًا، وكأنّه يهدّدني ويذكّرني في كلّ لحظةٍ أنّني تأخّرت عن موعدي ثانية، ثانيتين، ثلاث ثوان، وأكثر.

تجاهلتُ إشاراتِ البندول الخبيثة، ووضعت أصابعي في أذنيَّ كي أفوّت عليه فرصةَ تحطيم أعصابي.

نزلتُ دَرَجات السّلم الخشبي ببطء، تردّدت قليلًا، ثمّ اقتربت من مرآة البهْو الكبيرة بحذرٍ شديد، كان صوتُ وقع قدميَّ على الأرض الخشبية يتردّد صداه كسقوط مِطْرقة ثقيلةٍ على صفيح الخوف، كنت أعلم جيدًا ما يمكنُ أن يحدث لي إذا نظرتُ إلى المرآة، لكنني قرّرت المواجهة، فلا بدّ منها.

لن أسمحَ للمرآة بهزيمتي، سوف أسحقُ كلّ مخاوفي الآن.

لم أرَ وجهي منذُ أعوام، قيّدني الخوفُ إلى سارية العزلة.

قفزتْ إلى ذاكرتي فجأةً صورُ ذلك اليوم المشئوم، حين خلعت فستانَ زفافي الأبيض لأرتدي ذلك الفستانَ الأسود، في تلك اللّحظة نظرت إلى المرآة، فسقطت بداخلها، وظللتُ أسقط، وأسقط، دون أن أجد أرضًا أتهشّم عليها، أو بحرًا يبلعني.

كان سقوطًا إلى اللّاقرار.

بعدها، عاملوني كمريضةٍ نفسية، لم يصدّقوا قطّ أنّني سقطت داخل المرآة، لم يفهم أحدُهم ما حدث لي، وأغرقوني في دوّامة المهدئات، أولئك المجانين، وحرموني منذُ ذلك الوقت من النّظر إلى المرآة، كان ذلك منذُ أكثر من خمسة عشَرَ عامًا.

آنَ الأوان أن أتحرّر.

وصلتُ في تلك اللّحظة إلى مكان المرآة الكبيرة، لم أكن بعْدُ قد رفعتُ عينيّ عن الأرض، وقفتُ أمامها لحظات، والعرق يتصبّب من جبيني وجسدي كلِّه، حاولت أنْ أرفع رأسي لكنّ عنقي كانت مدقوقةً بمسمار إلى صدري.

صرختُ بكلّ قوّتي:

– هيّا!

رفعتُ رأسي فجأة، وعيناي الجاحظتان تبحلقان بشراسةٍ وتحدّ استعدادًا لمواجهتها، تلك المرآة القاتلة.

لكنّ عينيَّ ارتطمتا بالحائط الأسود.

صرختُ من الصّدمة، وسقطت مغشيًّا عليّ.

في الصّباح، وجدت نفسي في حجرةٍ غريبة، ممدّدة على فراش أبيض، مغطّاة بغطاءٍ أبيض كذلك، وعلى الفراشِ المجاور لفراشي، تراخى رأس عجوز متعَبَة، يبدو أنّها قضتِ الليل كلّه تراقبني بصمت.

همستُ مشفقة:

- يا مسكينة.

تذكّرت- دفعةً واحدة- كلَّ أحداث الليلة الماضية، والسّاعة الذهبية، والحائط الأسود، اعتدلتُ في فراشي قليلًا وبدأت أفكّر.

كان ذهني متوقّدًا، لم يكن يومًا بذلك الصّفاء، عاودت تذكّر الحائط الأسود.

نعم، أنا متيقّنة مما رأيت، يبدو أنّ أحدهم بدّل مكانَ المرآة، لم أنزلْ إلى البهو منذُ سنوات، لا شكّ أنّ أشياء حدثت أثناءَ غيابي!

أزحتُ غطاء الفراش برفقٍ كيْلا أزعجَ الرّأس المتعَب، خلعت ملابس النّوم وعدتُ لارتداء الفستانِ الأسود نفسِه، الفستان الذي ارْتديته يوم زفافي إلى الحزن.

تسلّلت خارجةً من الحجرة، أغلقتُ الباب بخفّة، ونزلت على السلم دونَ أن يشعر بي أحد، أدرتُ عينيَّ في البهو بلهفةٍ عارمة، فاكتشفت أنّه يخلو تمامًا من المرايا!.

انتابتني نوبةُ سخطٍ عارمة، عدتُ أدراجي بسرعة إلى الأعلى، جريت إلى أوّل حجرةٍ صادفتها، فتحتُ بابها بعنف، وفتّشت بعينيَّ في المكان، فلم أجدْ أيّة مرايا.

صفقتُ البابَ وجريت إلى حجرةٍ أخرى، لكنني لم أجدْ مرايا كذلك.

هكذا فعلتُ في كلّ الحجرات، حتّى سقطت على ركبتيَّ منهكَة، يدقّ قلبي في صدري بعنف.

هدأتْ أنفاسي قليلًا، فقمتُ عائدة إلى حجرتي، وكلّي غضبٌ من أولئك الذين أزالوا مرايا البيت كلّها.

كنتُ حائرة، لا أعرف أين أجدُ مرآة، فكّرت أن أسأل تلك العجوز التي كانت نائمةً في حجرتي.

أدرتُ المقبضَ بحرص، وفتحت الباب، دلفتُ إلى الحجرة، لكنني لم أجدْ أحدًا على فراشها، تراجعتُ للخلف بذعر، نظرت حولي، فرأيتُها، تقف بجواري تمامًا، وتنظر إليَّ، ترتدي الفستانَ الأسود نفسه، والزّهرة البيضاء.



غرباء

دوّت صافراتُ القطار القادم من بعيد، ربّما يبدو صوتُه المزعج لحنًا رقيقًا لكلّ مَن ينتظره لاهفًا، متعجّلًا الرحيل.

صعدتُ متثاقلة، أبحثُ بملل عن مقعد خال، نظر لي بودّ، أزاح حقيبته مِن على المقعد المقابل له، في إشارةٍ إليّ بالجلوس، حاولت أن أبتسم له بودٍّ مُشابه، لكنّ وجهي المتحجّر أبى ذلك؛ فبعضُ الأحيانِ تصير الابتسامةُ حملًا ثقيلًا، ولكنْ ربّما وصلته رسالةٌ باهتة من عينيَّ، أنْ شكرًا أيّها الغريب.

ارتميتُ على المقعد، بدتْ لي الوجوه جميعًا نسخًا مكرّرة، بدت لي الحياة كلُّها شريطًا سينمائيًّا أنهكه تكرارُ العرض، أشحتُ بوجهي تجاه النّافذة ورحتُ أحدّق باللاشيء، اللاشيء أتابعه بإصرارٍ يجري أمام كلّ الصّور فيجعلها باهتةً بعيدة، اللّاشيء يأخذني من كلّ ما حولي، أحيانًا العدمُ يصير أقربَ إلى القلوب من أيّ شيء آخر.

– تذاكر، تذاكر.

انتزعني النّداء اللّحوحُ من حالة السّكينة، ومن التّناغم مع فكرة العدم، فعدتُ مضطرّة إلى الاعتراف بالوجود، مددت يدي بالتذكرة، فسقطتْ تحت قدمي الغريب.

نظرتُ إليه وهممتُ بالكلام فمدّ يده بالتّذكرة بسرعة وعلى وجهه ابتسامةٌ مترقّبة، كأنّه يحاول أن يبادر بالحديث.

ابتسمتُ بدوري، ليس تفاعلًا مع ابتسامته، ولكنّها ابتسامة ساخرة، مُثقلة بالمرارة. ربّما في جلسة مشابهةٍ بدأت حكايتي، ربّما ارتبكت خجلًا يومًا ما حين أصابتِ ابتسامةٌ مشابهة قلبي في مقْتل، يا لها من أيّام!

أفقتُ من خواطري على صوتِه الهادئ، وهو يدقّق النظر في عينيَّ قائلًا:

– أعرفُ ما يدور في مخيّلتك.

ضحكتُ وقلت له:

– حسنًا، أخبرني أيّها الغريب!

ابتسمَ بثقةٍ مضحكة، وبدأ يثرثر، سرحتُ في عينيه البنيتين الغامضتين، وأخذتني رقصةُ خطوط وجهِه على موسيقى الغياب، صوته الدافئ الذي لا أنصتُ إليه؛ بل يأتيني كقوسِ قزحٍ امتزجت ألوانُه فعادَ أبيض.

تُرى ماذا وراء تلك العينين؟ تعاقبتْ في مخيّلتي صور كثيرة، ربما تكون بعيدةً جدًّا عن حقيقته، لكنّني كنت غيرَ مستعدّة لحديث ودّي مع الآخرين، ثمّة جدار قد شبَّ عاليًا بيني وبين العالم، صرتُ غير قادرة على تخطّيه، شعورٌ بالغربة يجعلك عاجزًا عن رؤية مَن حولك، فقّاعة تسجنك وحدَك داخلها.

سكتَ فجأة، لم أنتبهْ إلى سكوته أوّلَ وهلة، لكن بعد قليل، لاحظتُ أنّني فقدت فجأةً تلك الخلفية الصوتيّة رتيبةَ الإيقاع التي صاحبت أفكاري.

لم أحاولْ أن أسأله عن سببِ سكوته المفاجئ، فقد لاحظَ- بالتأكيد- أنّني لا أسمعه، لم أحاولْ تبرير موقفي، فلقاءٌ وُلد منذ دقائق، وقاربَ عمرُه على الانتهاء لا يحتملُ أن أمنحه هو الآخرَ حفنةً من التبريرات.

أشحتُ بوجهي من جديدٍ تجاه النافذة، تلذّذت بشعور اللّامبالاة، الإهمال، أن أكون غنيّة عن تبرير مواقفي، أنْ أبتعد فجأةً بلا مقدّمات، فقط لأنّني أردت ذلك، شعور بالقوّة والاستغناء ممتزجٌ بقليلٍ من الشّر، ربّما أجرّبه للمرّة الأولى، ويا لها من لذّة! ما أغربَ الحياة!

بعدَ دقائق من الصّمت، دفعني فضولي أن أنظرَ إلى وجهه، ربما لأرى تأثيرَ صفاقتي عليه، نظرتُ دون أن أديرَ وجهي ناحيته، بوقاحة لم أعهدْها في نفسي، فوجدتُه مبتسمًا كملاك، مازال ينظر إليَّ هادئًا، لا لومَ في عينيه، ولا غضب ولا كبرياء.

أثارتْ ردّة فعله الطيّبة فضولي كثيرًا، فسألته بحذر:

- ألستَ غاضبًا منّي؟

ردّ بتلقائية:

- لقاؤنا جدّ قصير، لا مساحة للغضبِ واللوم فيه.

قلتُ لنفسي: "حسنًا، إنّنا متفاهمان"، وابتسمت، لكن هذه المرّة، كانت ابتسامةً حقيقيّة.

لا أعرف كيف شعرتُ فجأةً أنّ الحاجز قد سقط، وأنّ جدران الفقاعة تلاشت، لا أعرف كيف قرّرت فجأةً أنْ أمنحه أذني، وروحي، ولو لبعض الوقت.

عادَ إلى الثّرثرة بسرعة، ولكني كنتُ معه هذه المرّة، ازدحم الوقت بحكاياتٍ كثيرة، بالضّحكات، والدّموع أحيانًا، شاركته لحظات انتُزعتْ من العمر انتزاعًا، على حين غفلةٍ من الأحزان.

اقتربنا من محطّة الوصول، مدّ لي يدَه ببطاقة، يبدو أنّ فيها اسمه وأرقام هواتفه، فألقيتها في حقيبتي دون تردّد.

صرخَ القطار في أذنينا، معلنًا النهاية، أو ربّما البداية، سلّمت عليه بحرارة، ومضيت.

وبعدَ خطوات، على رصيف المحطة، أخرجتُ البطاقة من حقيبتي، قرأتُ اسمه، تعاقبت على رأسي المتعَب صورٌ كثيرة، فكّرت للحظات، ثمّ تركت بطاقتَه لعبَثِ الرّياح، وضحكاتها أيضًا.

ربّما كانت ساعة، كحياةٍ قصيرة رائعة، وربّما مصدر روعتها الوحيد أنّنا غريبان...

حسنًا، فلنبقَ كذلك.



الممرّ

- لا أستطيع التنفّس.

صرختْ إحداهنّ بشراسة المتشبّث بالحياة، محاولةً دفع الجميع بعيدًا عنها، لكن المتّسع الذي اكتسبته من الدّفع امتلأ فورًا بعشرات السّجينات المتدافعات من الجهةِ الأخرى.

صرختْ أخرى بهيستيريا وهي تدقّ الجدران بقبضةٍ ضعيفة يائسة:

- لا أملَ لنا، سنموت جميعًا في هذا السّجن الزّجاجي الضيق، لا منفذ من أيّة ناحية، لا أمل.

- ما الذي أتى بنا إلى هنا؟

تساءلت إحداهنّ وهي تُمسك بعنقها المختنق.

أشحْنَ بوجوههنّ بعيدًا عنها هربًا من عينيها النّافذتين إلى نفوس تتجاهل جهلها بالحقيقة.

- ما فائدة السّؤال؟ جئنا بالفعل، وصار لزامًا علينا أن نقبل الواقع.

ردّت إحدى المتحذلقات.

- لكنْ لا بدّ من وسيلة لتفهّم الأمر، ليس عدلًا أن يُلقى بنا في ذلك السّجن، ثمّ نقبل الأمرَ دون حتى محاولة السؤال.

التفتتِ العيون باحثةً عن المتكلمة، لكنّ الزحام جعل الأمرَ شبه مستحيل. رفعتْ إحداهنّ رأسها قدرَ استطاعتها وقالت:

- لا مجالَ الآن لتلك الأسئلة، الوقت يمرّ، والوضعُ صعب، دعونا نبحث عن مخرج.

- ثمّة ممرّ في أسفل محبسنا.

فجّرت إحداهنّ المفاجأةَ ببرودٍ مريب، ساد صمت مطْبِق، وتبادل الجميع نظراتٍ غير مصدّقة.

أردفت الغريبة تقول:

- لكنّه ضيّق جدًّا، يتّسع بالكاد لواحدة فقط.

- كيف يمكننا الوصولُ للممرّ؟ تساءلتْ إحداهنّ بحماسة الذي عاد له الأمل.

التمعتْ عينا الغريبة، وحدّقت بشيء ما في الفراغ، ثمّ أردفت قائلة:

- لا تشغلنّ أنفسَكن بالوصول، كلّنا سنصل بالتأكيد، كلّ في وقته المحدّد، والسّقوط عبره مصيرٌ حتمي، كلّما سقطت واحدةٌ انهار جدار الصدّ أمام التالية.

برقتِ الدّهشة في العيون، وعُدْن لتبادل النظرات، ثمّ همست إحداهنّ خائفة:

- وكيف عرفتِ بوجود الممر؟ أنتِ حتماً كاذبة، لا منفذ بالمرّة في تلك الجدران الزجاجية الصّلْدة.

– صبرًا، سيمرّ الوقت، وستزيد المسافة بيننا وبين السّقف، وسيكون ذلك هو الدّليل على وجود الممر.

صمتَ الجميع، ثمّ قالت إحداهنّ بصوت محشرج:

– حسنًا، فلنفترض أنّكِ على حقّ، وأنّ ثمّة ممرًّا، الأهمّ هو: إلى أين يفضي ذلك الممر؟

سادَ الصّمت مرّة أخرى، ودارت العيون في محاجرها.

ردّت الغريبة بمزيدٍ من البرود:

– إنّها ليلتنا الأولى هنا، وليس لدينا اتّصال بمن مرّوا بالفعل، على كلّ حالٍ، ليس لدينا الخيار.

تصبّب العرق غزيرًا على الوجوه.

"بالتّأكيد حرّيتُنا بعد الممر، لا شيء أسوأ مما نحنُ فيه الآن، إنها رهبة المجهول، لا أكثر".

حاولتْ إحداهنّ التّهدئة.

تبادلنَ نظرات مشكّكة، وأطلقت كلّ منهنّ لخيالها العنان، تحاول استشرافَ ما بعد الممر، وهل هناك ممرٌّ من الأساس؟

مرّ الوقت، وجميعهنّ يبَحْلقن بالسّقف، يقسنَ ارتفاع الجدار بعيونهن مرّة كلّ ثانية، ليريْنَ إنْ كانت نبوءة الغريبة صادقة.

بعدَ وقت بدا لهم طويلًا جدًّا، ظهر جليًّا للجميع أنّ السقف يبتعد بالفعل.

- الممرّ حقيقة، إنّها ليست كاذبة.

قالتْ إحداهنّ بصوتٍ واهن، ثمّ أردفت تقول بحماسة مصطنعة:

- سنسقط جميعًا، الآنَ أو بعد حين، وبعدها تأتي الحرية.

- أو ربّما الموت.

ردّت إحداهنّ وأطلقتْ ضحكة طويلة، تعالت همهماتٌ خائفة، ثمّ ساد صمتٌ مهيب لا تقطعه سوى دقّات القلوب الوَجِلة على جدار الترقّب.

بلغتِ القلوبُ الحناجر، العيونُ معلّقة بالسّقف، والمسافة تتزايد ببطء شديد، ولم يبقَ في السّجن إلّا قليلات، حاول بعضهنّ التمسّكُ بالجدار الزّجاجي الزّلق، فالسجنُ أفضلُ من المجهول، لكنهنّ كنّ ينزلقْنَ بسهولة في النّهاية حين يحين الوقت، حتّى سقطت الأخيرة، تلك الصابرة صبرَ أيوب، فاكتشفتْ كغيرها أنّ ما بعد الممرّ يشبه ما قبْله تمامًا، لا شيء هناك البتة سوى سجنٍ زجاجي آخرَ ازدحم بأجسادهنّ المتلاصقة.

وقفْنَ جميعًا في ذهول يحدّقنَ بالممرّ الذي صار فوقهن، وقبل استيعاب الصّدمة، فوجئنَ بانقلابٍ عظيم تطايرت فيه الأجسادُ وارتطم الجَمْعُ بالجدران، ليعودَ الممرّ في الأسفل، وببطءٍ شديد، بدأن رحلةَ العودة إلى السّجن الأول، بالطريقة نفسها.

- لكنْ لماذا؟ إلى متى؟ كيف الخلاص؟ صرختْ إحداهنّ كالمجنونة.

ردّت الغريبة بصوتٍ ساخر تردّد عبْر الممر:

- أسئلةٌ ستبقى إلى الأبد بلا إجابات، أو ربما تطلع علينا بعضهنّ بنظريّات فلسفية مُضحكة عن معنى وجودنا هنا، وحكمة وجود الممر.

أطلقتْ ضحكةً طويلة عالية بتَرَها سقوطُها المفاجئ، عبر ساعة الرمل.



حضنٌ بالإيجار

- القهوةُ زائدة السّكر.

قالها أبي بصوتِه الأجشّ المخيف، وهو يرمقني بنظراتِه النارية.

ازدردتُ لعابي بصعوبةٍ وأنا أغمغمُ بكلماتٍ متداخلةٍ بصوت غير مسموع، نهضَ من مكانه كشجرة اجتثّتها عاصفة من جذورها، جذب حقيبتَه وأسرع إلى الخارج، صافقًا الباب على أعصابي المرهقة.

سحبتُ نفسًا عميقًا، تناولت فنجانَه بأصابعي المرتعشة، ارتشفت منه رشفةً طويلة، حملت حقيبتي، ثمّ هُرعت أنا الأخرى إلى عملي.

- صباحُ الخير، ما بك؟

قالها زميلي المسنّ ذو العينيْن الفقيرتين في جَمالهما، الغنيّتين في حنانهما.

رسمتُ على وجهي أماراتِ الجدية، تنحنحت في حزم، وقلت له:

- لا شيء، هل يبدو عليّ شيء غير عادي؟

ابتسم برقّة قائلًا:

- لا، أبدًا، أردتُ الاطمئنان عليك فقط.

التفتَ وحثّ الخطى إلى مكتبه في الزاوية البعيدة، ثبّت عينيه على شاشة الحاسوب وانْهمك بالعمل.

حاولتُ أن أنهمك أنا الأخرى بعملي، أنْ أبدو طبيعية، أن أرسم على وجهي شبحَ ابتسامة، لكن ذلك كان صعبًا جدًّا.

لم تكنْ تلك المرة الأولى التي تحاصرني فيها نظراتُه حين يقابلني في الصّباح، وقد تبدَّت في عينيَّ كلّ أمارات قهري، أنا لا أعرفه أكثر من سواه، ولا حديث بيننا، لكنّه الوحيد الذي يرى في عينيَّ شيئًا مثيرًا للتّساؤل، الوحيد الذي يسألني دومًا: ما بك؟ ومازلتُ أصرّ على إنكار أنّ ثمّة شيئًا بي.

مرّت الأيام وأنا مُصرّة على ألَّا أهدم ذلك الجدار الفولاذي الذي أحطت به نفسي ليعزلني عن الجميع، لكنّه في ذلك اليوم سقط فجأة.

كان صباحًا مختلفًا، لم تشرقِ الشّمس فيه تقريبًا، سماء ملبّدة بالغيوم، يخترقها شعاع هزيل.

وصلتُ إلى مكتبي وأنا لا أتمالك نفسي، لم ألحظْ أنني نسيت أن أصفّف شعري، لم ألحظْ أنني أرتدي شبشبَ الحمام، كنت كمَن أفاق لتوّه من غيبوبة، ولا يزال يحاول الاتّصال بالعالم الخارجي، في حين تأتيه الأصوات الخارجية كشيفرة معقدة.

كان صوتُ أبي الأجشّ المخيف يتردّد صداه في أذني، ويخترق روحي كسهامٍ مسمومة.

أصعبُ ما في وجعي أنّني كنت عاجزة عن الصراخ أو التلفظ بآه.

وجدتُه قد تسمّر أمام مكتبي، يحدّق بعينيَّ المحتقنتين الذاهلتين مردّدًا السّؤالَ نفسه:

- ما بك؟

وما مِن جواب.

مدّ يده إلى كفّي المرتعش، فجذبني إليه برفق، كطفلةٍ سرتُ إلى جواره بلا إرادة، لا أعرف إلى أين، ولا لماذا سلّمته كفّي.

وجدتُ نفسي جالسةً إلى جواره في السيارة، والسيارة تنطلق بنا على الطّريق، والهواء البارد يلفح خديَّ، كصفعاتٍ متكرّرة تحاول إيقاظي، بلا فائدة.

لم يكنْ لديّ كلام أقوله، ولم يكن لديّ إرادةُ اتّخاذ أيّ قرار، كان عقلي في حالةِ شللٍ كامل، كلّ ما في الأمر أنّني جنَّدت كلّ طاقتي لمنع جحافل دموعي مِن اجتياحِ جفوني الملتهبة، كنتُ كمَن يقاوم دفع باب موارب، محاولًا إعادةَ إغلاقه، لكَن الدّفع استهلك كلّ طاقتي تقريبًا، ومازلتُ مصرّةً على المقاومة.

توقّفت العربة بنا أمامَ مبنى ما عدتُ أذكر لونَه أو شكله، لكنّه كان كبيرًا بما يكفي لاستيعاب روح متورّمة من كثرة احتباس الألم، أو صغيرًا بما يكفي لحماية روحٍ أرهقها التّيهُ من الوقوع في المزيد منه.

نزلَ من السيارة، فنزلت، أمسك بكفّي وسار بي دون كلام.

جلسْنا إلى مائدةٍ في ركن هادئ، أطلق تنهيدةً عميقة ثمّ أمسك بيدي مرّة ثانية، وقال لي:

- والآن، ما بك؟

في تلك اللّحظة، سقط الجدار، سقط دون مقدّمات، دون أن يهتز أو يتأرجح قليلًا، دون أن تتساقط منه لبناتُه الواحدة تلو الأخرى، سقط في ثانيةٍ كأنْ لم يكن يومًا، واجتاح طوفانُ احتياجي أروقةَ قلعة نفسي الحصينة، واجتاحت أمواجُ ضعفي كلّ مدخل، فسقط رأسي المهزوم على كفّه، وغرقتُ بدموعي.

انتظرَ طويلًا دونَ حراك، تركني أبكي طويلًا، لم ينبس ببنت شفة، وبعد حين، قام من مقعدِه وجلس إلى جواري، جذبني إليه دون كلام، فاحتضنني.

لم أقاوم، لم أفكّر حتّى بالمقاومة، كنت أحتاجُ ذلك جدًّا، كعطشان قاربَ الهلاك ألفى نفسَه على ضفّةِ نهر؛ فرَمَى بنفسِه فيه.

تركتُ نفسي تمامًا كي أنهل من دفء صدره، تركتُ جسدي المتيبّس من ثلجِ وحْدتي يتدفّأ ويستعيد الحياة، تركت قلبي الذي يشبه إيقاعُه أداء عازفٍ موسيقي ثَمِل، يهدأ، ويدقّ ببطء وانتظام، تركت روحي المفزوعة الهائمة في طرقات وحدتها هاربةً من الأشباح طوال الوقت، تقف، تسترد أنفاسَها، تهدأ، تشعر بالأمان، تتيقّن للحظاتٍ على الأقلّ مِن أنها ليست بحاجةٍ للهرب.

تركتُ رأسي الثّقيل الذي أرهقني حملُه طوال سنواتٍ ليرتاح على كتفه، تركتُ جفوني التي لا ترتخي أبدًا لتتراخى بهدوء على عينيَّ، لا أحتاج أن أرى النّور، لا أحتاج أن أبحث عن طريق، صدرٌ دافئ يكفيني ويرويني.

لا أعرفُ بالضّبط كم مرّ ورأسي على صدره، ربما كان وقتًا طويلًا، لا أعرف، فحين تشعرُ بالاكتفاء التّام ويصير كلّ العالم غيرَ ذي معنى، تفقد القدرةَ على التقدير الحقيقي للزمن، لا تعرف الفارق بين الساعة والدّقيقة،

تصبح اللّحظة التي تعيشها هي الحياة وكفى، لا شيء سبقها، ولا شيء يليها.

تركتُ نفسي أتذوّق طعمَ وجودي، وأبتسمُ ملء روحي، ربّما للمرّة الأولى في عمري.

رفعَ رأسي من على صدره برفق، لملَمَ خصلاتي المتناثرة كأمٍّ تعيد ترتيب شعْرِ طفلتها، همسَ بإشفاق:

- مرّ وقت طويل، وعلينا أن نغادر الآن.

قامَ وجذبني إليه من يدي للمرّة الثالثة، لكنّني هذه المرة، وددتُ لو أنه لا يتركها أبدًا.

عدْنا إلى العمل، وقد تبدّل التّيه الذي أضاعني فيه الحزن، إلى تيه آخر لا حزنَ فيه، لكنه تيهُ الدّهشة، تيه يلفّني فيه ألفُ سؤال وسؤال، وصراع أحاول الفِكاك منه، فأجدُ ألَّا مفرّ من المواجهة.

ربّما لم أعرف حنانَ الأم، ولا دفء لمسة الأب، ربما لم أنلْ من والدي غيرَ البؤس والتسلّط والاستغلال، لكنّني لم أعرفْ يومًا كم كنت أحتاج إلى ذلك الحضن، لم أعرفْ ذلك يومًا لأنّي لم أذقْه.

لكنّني الآن عرفت، ترى هل أسْتغني عنه؟ هل أعودُ إلى برد وحدتي؟ هل ألهثُ عطشانةً وبيني وبين النهر جدارٌ مِن هواء؟

دلفتُ إلى منزلي ذلك اليوم، وشعورٌ غريب يسيطر عليَّ، أنظر إلى أبي الجاثم بسوادِهِ فوق روحي من بعيد، فلا أعرف، من منَّا يستحقّ الموت؛ أنا، أم هو؟

ألقيتُ نفسي في الفراش، عجزتُ عن الحركة أو الكلام طوال اليوم، كنت كخارجٍ من معركة مثْخنًا بالجراح، تدْهمني كوابيس اليقظة أكثر مما تفعل كوابيسُ النوم، أفتح عيني ثمّ أغلقهما لأهربَ من جحيم إلى جحيم.

لم يحدِثْ ذلك فارقًا عند أبي، كان يمرّ من أمام الحجرة ملقيًا نظرةً فضولية عليَّ، ثمّ يكمل طريقَه دون مبالاة.

أمَا وأنّي قد ذقت الحضنَ القدسي، فقد كرهتُ أبي، وكرهت أمّي، لماذا حرمني الجميع؟ لماذا فعلتم بي ذلك؟

راحتِ الأسئلة تدورُ في عقلي كإعصار، حتّى غلبني النوم.

وفي الصّباح، نهضتُ نشيطة، وقد عزمت على شيء ما.

فتحتُ باب مكتبي واندفعت باسمةً باتجاه زميلي المسنّ ذي العينين الفقيرتين في جَمالهما، الغنيتين في حنانهما، نظرَ لي بدهشة وحذر، يبدو أنّني بدوت فائرةً أكثر من اللازم.

انحنيتُ عليه بجديّة، وقرّبت شفتيَّ من أذنه هامسة:

- بكمْ تؤجّر لي حضنك؟

اتّسعت عيناه دهشة، ثمّ انفجرتْ على شفتيه ضحكةٌ خجولة، حتى احمرّت وجنتاه.

دارَ بيننا حديث، امتلأ بدفء الأنس أكثرَ مما ملأته الكلمات، لكنه انتهى بي إلى تأكيدِ قناعتي أنّني لا أحتاج شيئًا من ذلك العالم إلّا حضنًا، وإنْ كان بالإيجار.

مَلِك وكتابة

كان يومًا فارقًا في حياتي، حين سألتُ جدّي، الذي كان قد تجاوز عامَه التّسعين في ذلك الوقت؛ عنْ مهارة اتّخاذ القرارات الناجحة، فما كان منه إلّا أنْ مطّ شفتيه في استهانة، وأخرجَ من جيبه قطعة نقديّة وقف تداولها منذُ زمن بعيد، فأمسكها بيدِه المرتعشة بارزةِ العروق بثقة، ووضعها بصعوبةٍ على ظفْر إبهامه، ثمّ وضع إبهامَه على ظفر السّبابة بما يشبه الدّائرة.

وفجأةً أفلت إبهامه وضرب القطعةَ المعدنية بالسبابة، في حركة فنية رشيقة، أعقبها بضحكة، أحسبُه تمنّى لو كانت أعلى، لكنّها على أية حالٍ كانت أعلى ما تسمحُ به بقايا حباله الصّوتية الهرمة.

وقعتِ القطعة النقدية على الأرض، أشار إليها جدي ببساطة المحترف، وقال:

- إنْ وقعت على الملك فعليكِ بالقرار الأوّل، وإن وقعت على الكتابة فعليك بالثاني، مُنتهى السهولة.

والحقّ أنّه سحرني بأسلوبه الواثق وحكمتِه البسيطة، لا أعلم أبدًا سبب تصوّر المحيطين أنّه كان مصابًا بالخَرَف!

وهكذا، وضع لي جدّي- العزيز- حجرَ الأساس لآليّة اتخاذي القرارات مستقبلًا.

وكان أوّل يومٍ استخدمتُ فيه تلك الآلية حينَ ظهرت نتيجة الثانوية، وجدتُ صديقي ينصحني باختيارِ الكلية التي تتناسب مع ميولي ومواهبي،

والتي كان يعلمُ الجميع في ذلك الوقت أنها أدبيةٌ صرفة، لكني كنت أكره حيرةَ المواقف الاختيارية فأخرجتُ من جيبي القطعة النقدية التي أعطاني إيّاها جدّي، رميتها بالطريقة التي علّمني إيّاها، طارت في الهواء، وسقطت على الأرض على صورة الملك.

شعرتُ بالارتياح، حين أعفتني تلك القطعةُ المدهشة من حيرة التفكير، وتوجّهت فورًا لتقديم أوراقي في كلية الطب.

لا أنكرُ أنّني عانيت كثيرًا في تلك الكلية، خاصّة أنني كنت أكره بشدّة منظرَ الجثث والدّماء، وتصيبني رائحةُ المستشفيات بالغثيان، وليس لديّ- بالمرّة- ملكةُ الحفظ، لكنّ إخفاقي في الدراسة لم يكن مبرّرًا قطّ لاتهام قطعتي النّقدية أنها أساءت الاختيار!

وقفتُ على مفترق الطّرق مرّة ثانية حين هممت بالزواج، وقتها عرضت عليّ والدتي فتاتيْن، سألت عنهما، فحذّرني الجميع من الأولى، وقالوا إنها سليطةُ اللّسان، فارغة العقل، لكنّني كرهت كعادتي حيرة الاختيار، فلجأتُ إلى قطعتي الحبيبة، ووثقت بها حين رجّحت لي تلك الفتاة.

عانيتُ معها أكثر من عشرين عامًا، حتى انتهى بي الحال إلى قتلها وإحراقِ جثتها بالشّقة ومحتوياتها دونَ أن يشعر أحدهم أنّ ثمة جريمة ارتُكِبت، فمعَ مثلي من العباقرة، من الصّعب اكتشاف ما يُراد إخفاؤه!

ما حدثَ لا يعني مطلقًا أنّ قطعتي المعدنية كانت المسئولة، فأنا أكره كثيرًا أولئك الذين يبحثون دائمًا عن شمّاعة يعلّقون عليها أخطاءهم السخيفة!

في العام الذي تورّطت فيه البلاد في الحرب، استدعتني القوات المسلحة للخدمةِ الاحتياطية، شأني شأنَ بقية أقراني، فوقعتُ في حيرة جديدة ما بين أداء واجبي العسكري أو الهرب، لكنّ قطعتي السحرية أنقذتني كعادتها، وقرّرت أن أهرب.

كبَّدني ذلك القرارُ سنواتٍ من الغربة والوحدة، إذ لم يسبقه تخطيطٌ كافّ لوظيفةٍ محترمة وحياةٍ كريمة، لكنّ هذا لا يهمّ؛ فكثيرًا ما يحمل القرار الصّائب قدْرًا من التضحيات في طياته.

المهمّ أنّني اليوم، وقد ناهزَ عمري الثمانين، أكنّ كلّ التقدير لتلك القطعة النّقدية السحرية، التي ساعدتني في حياتي أيّما مساعدة، ومازلت حتّى اليوم لا أتركها تفارقُ جيبي لحظةً واحدة.

بالأمس، استدعيتُ حفيدي الوحيد، وقرّرت أن أورثه السّر الكبير كما ورّثني إيّاه جدّي، فأمسكت بالقطعة المعدنية ورميتها بحرفيّة كما علمني جدّي، ولقّنته بثقةٍ كيف يمكن أن يتّخذ القرارات.

الغريبُ أنّه بدا غيرَ مقتنع!

والحقّ أنّني لا أعلم لذلك سببًا، لكنّ همسًا ما يتردّد في المنزل من وقتها، وثمّة نظرات بلهاء في عيونهم!

أغضبني كثيرًا هؤلاء الأغبياء، لا أستطيع أن أقرّر، ما إذا كنت سأمكثُ في ذلك المنزل البغيض أم سأعاقبهم بتركه!

آه، قطعتي السّحرية!

قذفتُها في الهواء، فسقطتْ على الكتابة!

- وداعًا أيها الأغبياء!

تسلّلت خارجًا في الظّلام بمنامتي، سرتُ مسافة طويلة، ارتميت فجأة على الرّصيف، وقد نفدتْ طاقتي تمامًا.

شعرتُ بالجوع والرّغبة في الراحة، لم أعلم ماذا عليّ أن أفعل، لا أعرف كيف أعودُ إلى البيت، ولا أذكرُ العنوان بالضبط.

هل أخطأتُ حين تركتهم؟

أخرجتُ من جيبي القطعةَ المعدنية، تأمّلتها في غيظ.

- أنتِ السّبب أيتها اللعينة.

صرختُ بجنون، وقرّرت أن أتخلص منها.

هل ألقيها في بالوعةِ المجاري أو أقذفها في صندوق القمامة، قرّرت أن أسألها للمرّة الأخيرة، فضربتها بالسّبابة بحرفية كبيرة، مطلقًا ضحكة شامتة.

سقطتْ على الأرض ووقفتْ على حافتها بإباء، مستندةً إلى الرصيف. فاجأني ذكاؤها الشّديد، فشعرتُ بالنّدم على سوء ظنّي بها، وتأكّدت أني لم أخطئ يومًا حين أسلمتها قراري.

التقطتها من الأرض، قبّلتها في اعتذار، أعدتها إلى جيبي بفخر، ثمّ وضعتُ رأسي بجوار صندوق القمامة، واستسلمتُ للنّوم على الرصيف الهادئ.

عبْقريةُ اللّمس

حينَ تتلامس كلماتُنا فجأة، في لحظةٍلم يُتوقّع فيها اللقاء، تحملني

تلك الموجةُ دون إرادتي بين موسيقى صوته، فأعلو بسرعة، وأعلو، وأعلو، حتّى يبدو العالم صغيرًا جدًّا، ثمّ أفيق فجأة حين تلتفّ وتهبط بي بسرعة مرّة أخرى فتُلقيني وحيدةً على شاطئ الدهشة.

معركةٌ لا تدوم أكثرَ من ثوان، يُستنزف فيها قلبي الصّغير، قبل أن يخرّ مهزومًا على أعتاب مدينة الحلم.

ينتهي كلّ شيء، ثمّ يتكلّم بهدوء، ذلك المجرم، وكأنّه لم يفعل بي شيئًا منذُ لحظات.

تمامًا كإبليس، يوردُك المهالك، ولا تملكُ عليه دليلًا، وليس لك عليه من سبيلٍ إلّا أن تستعيذ من الحبّ.

أفقتُ من أفكاري على صوته الرصين: "كيف حالك؟"

تحسّست شعْري بسرعة لأتأكّد من تنسيقه، عدّلت نظارتي السوداء، ابتلعتُ ريقي بصعوبة، وبذلت جهدًا لإخفاء ارتباكي.

"ليتني أستطيعُ أن أخبرك كيف حالي، وما فعَلَه الحبّ بي". أسررتها في نفسي وأطرقتُ صامتة.

جلسَ بالقرب منّي كعادته، وبدأ يتكلّم دون أن ينتظر منّي الرد.

كان حديثُه الليلةَ عن عبقرية اللّمس، قال إنّها الحاسّة التي لا يدرك أسرارَها إلّا العُميان، فالمبْصرون تلهيهم مغرياتُ العيون، وتتوهُ أرواحهم في مهرجانات الألوان، فتموتُ في أناملهم المهملة أسرارٌ عظيمة.

"أنْ تلمس ما لا تراه عيناك.. يختلفُ كثيرًا عمّا لو رأيته.

ففي الظّلام، تتوقّد حاسة اللّمس، ترهفُ الأنامل، وتُبعث فيها روحٌ،

فتستشرف ما خلْفَ الحجُب!

تتمهّل عند كلّ نقطة، تستلهم خصائصها الدّقيقة، وترسم ملامحها الخاصّة، تقرأ ما بين سطورِ الخلق، وترى للأبيض والأسود درجاتٍ لا يفهمها المبصرون.

حين نلمسُ الأشياء بعيونٍ مغمضة، نحفر أنفاقًا سريّة بينها وبين أرْواحنا، فتنسابُ عبرها بسهولة، وفي لحظةِ اللقاء يحدُث الالتحام، وحين تعودُ أرواحنا إلينا فإنّها لا تعود كما كانت، تلك صورة مختلفةٌ كثيرًا عمّا تراه العيون، لكنّها الأصدق".

انتهى من حديثه القصيرِ لي، ثمّ نهض ليرحل... ويتركني في ظلامي وحيدةً كعادتي.

شعرتُ بالطّاقة تسري في عروقي، وأنّ حماسي يعلو على الخجل.

تحسّستُ موضعَ عصاي، أمسكتها بقوّة، اتّكئتُ عليها بثقة، تقدّمتُ خطوة رشيقة كملكة، ثمّ مددتُ كفّي إلى كفّه بحذر في حركة، ربما لم يتوقّعها، مدّ كفّه لي- ربّما باستغراب- هكذا تصوّرت، ضغطتُ كفّه برفق وحذر، حرّكتُ أناملي بخفّة وأناةٍ على تضاريس كفّه، قرأت خارطة ثناياه، وحفظتها في القلب.

أرسلتُ في عروقي قطعة من روحي، فسرى طيفُها في مساراتِ كفّه كلّها، حتّى تفجّرت ينابيع النور، وسكن كياني في سلامِه الرّقيق، وهنا رأيته!

نعمْ أبصرتُه بوضوح، ربّما لا تشبهه تلك الصورة في خيالي أبدًا، لكنّها الأصدق بالتّأكيد، فهكذا علّمني.



وُلِد ولم يعد

– ليْتني أفهمُ أين أنا، وما الذي أتى بي إلى ذلك المكان الضيق الموحش؟ وما تلك الأصواتُ التي تأتيني من بعيدٍ عبْر الجدران؟ أحيانًا أسمع أصواتًا تبدو منتظمةً على نحو ما، لا شكّ أنّ لها معنى، تبدو رسائل مقصودة.

– أحيانًا أسمع جلبةً وصراخًا، وأحيانًا أخرى صمتًا تامًّا، لكن تلك الجدران اللعينة تقفُ حاجزًا بيني وبين الحقيقة، إنّها تخفي وراءها الكثير!

– أكثرُ ما يغيظني هو ذلك الطّرْق المنتظم الذي لا يملّ خرقَ رأسي، إنّه يعذّبني أكثر مما يفعل ذلك القيدُ الذي يلتفّ حول أطرافي حين أتحرّك.

– يا لها من حياةٍ شقيّة لا معنى لها، مَن يشعر بعذاباتي؟

– وحْدي أنا في هذا العالم، لا أحدَ يشاركني تساؤلاتي المميتة! قديم أنا هنا، منذُ عمْر الزمن، لا أفهمُ كيف بدأ، وهل ينتهي يومًا؟ وهل أبقى هنا طويلًا، أدقّ رأسي المعلّقة على جدار الدّهشة؟

كان ذلك كلّ ما أفكّرُ به، وكلّ ما في حياتي الفارغة، إلّا من الحيرة، حتى أَتَى ذلك اليوم.

حينَ شعرت فجأةً باهتزازاتٍ خفيفة حولي في الجدران، لم أُعِرِ الأمر اهتمامًا كبيرًا في البداية، وبقيتُ مصلوبًا على سارية تيهي.

حتّى توحّشت الجدرانُ فجأة، وصارت تضغطني وتُطبق على كلّ جزء في جسدِي بعنف، تكاد تسْحقني، أردت الصّراخ، لكن بمَن أستغيث في عالمٍ ليس فيه سواي!

حاولتُ المقاومة، لكنّ الجدران كانت أقوى كثيرًا من جسدي الضعيف، كانت تدفعني بقسوةٍ في اتجاه ممرّ فُتح فجأة في أحد الجدران، بينما تعالتْ وتسارعت كثيرًا تلك الطرقات التي اعتدتُ أن تثقب رأسي، وكأنها تؤدّي خلفيّة موسيقية مناسبةً لمشهدي الدرامي المأساوي.

- يا للكارثة، لا أتخيّل نفسي في ذلك الممرّ، إنّه أصغر من حجم جسدي، سأسْحَقُ حتمًا إن مررت به!

- إلى أين أنا ذاهب؟

مازلتُ لا أفهم سرَّ وجودي هنا، هل أسيّر مرّةً ثانية مسلوبَ الإرادة إلى حيث يكمنُ لغزٌ جديد؟ يبدو أنّها خطّة مدبّرة لنقلي من سجني الضيق إلى سجنٍ أضيق وأشدّ إيلامًا.

مضى وقتٌ طويل جدًّا والدّفع لا يهدأ، حتى خارت قواي، واستسلمت لمصيري الأسود، بعد أنْ فترت مقاومتي.

وفجأةً، وجدتُ نفسي محشورًا داخل الممرّ، مدفوعًا باتجاه محدد، بسرعة كبيرة.

كانت الجلبةُ بالخارج تعلو وتتّضح بسرعة، وأصوات متداخلة كثيرة وصراخٌ مزعج حتّى وجدت نفسي حرًّا، بلا جدران أو قيود.

كانت أحلكَ ساعات عمري، لقد قطع القيد الذي كان يربطني بعالمي، حتّى ذلك السّائل اللّزج الذي طالما صببتُ عليه جامَ غضبي، لم أعدْ أشعر به.

فتحتُ عينيّ قليلًا، ولأوّل مرّة أكتشف أهميّةَ ذلك الجزء من جسدي، أدْهشني مرأى تلك الألوان المتباينة، فتاريخي لا يعرفُ إلّا اللون الأسود، لونَ الظّلام!

حاولتُ أن أقنع نفسي أنّي تحرّرت من سجني الصّغير، وصرت إلى عالم كبير.. لكنّ الخوف لم يلبثْ أن حاصرني، ولأوّل مرّة أعرفه.

تُرى ماذا يخبّئ لي هذا العالم؟ وهل سأقرّ فيه هذه المرّة؟ أو سأكتشف يومًا أنّه مجرّد برزخ آخر، أُدْفَع بعدَه مُرغمًا إلى مجهول جديد؟!

تُرى هل أجدُ هنا مَن يجيبني عن تساؤلاتي؟ أو أظلّ بلا نهاية أتساءل، لماذا أنا هنا؟

علا صوتُ حيرتي في ضميري، أرهفتُ السّمع، فوجدت صوت الطرقات المنتظمة القديم الذي طالما أثارَ غضبي، لكنّه هذه المرة، أعاد لي إحساسي بالأمان.

فنسيت أسئلتي الصّعبة، وعالمي القديم، والسّاعاتِ القاسيةَ، واستسلمت ليدٍ حانية تهدهدني في ضمّة دافئة.

سامحني.. أرجوك

في تلك اللّيلة، انْزوى القمرُ في زاوية قديمة من السّماء، متدثّرًا بلحافٍ من سحب مهْترئة الأطراف، يرتعد شعاعُه الهزيل من البرد، ويغمض عينيه هلعًا كلّما أومضت شرارةُ برق، وحيدًا في سماءٍ كبيرة مظلمة، تباعدت عنه النجوم، ونسيه الجميعُ، لا أحد يذكره.

جلستُ في شرفتي، أراقبه مشفقةً، ليتني أستطيع أنْ أخبره أنني أفهمه، أنّني أحبّه وأذكره، ليتني أستطيع أنْ أحتويه بين ذراعيَّ لأدفئه.

انتشلني من أفكاري صوتُه المعدني الباردُ وهو يناديني فجأة، التفتُّ إليه ببرود، ذلك الذي علَّمني إيّاه، وبعينين متسائلتين نظرتُ له، دونَ أن أكلّف نفسي مؤنَةَ الرّد.

لم يبدُ عليه أنّ أسلوبي ضايقه، فتلك أشياءُ صغيرةٌ لا يلقي لها بالًا! بادرني بقوله: أريدُك في أمرٍ هام.

سحبتُ ببساطةٍ الكرسيَّ المجاور، في إشارة إليه بالجلوس.

جلسَ على الكرسي ونظر إليَّ في جديّة، وتكلّم.

قال أشهرَ جُملة في تاريخ اللّغات البشرية، على مستوى الواقع، والرّوايات، والسينما، جُملة قصيرة من كلمتين، طويلةٌ جدًّا في معناها!

قال الجملة الفاصلةَ بين مرحلتين في حياةِ كلّ زوجٍ من الأرواح تعاهدتْ يومًا على الحبّ، ثمّ عجزت عن الوفاء بالعهد.

قال الجملة التي يردّدها كلّ الرّجال بسطحية، كخيطٍ هزيل يمسكون به، ولا يروْن ذلك الصّندوق الثقيل المتّصل بطرفه من خلفِ جدار، جدار من الخواء العقلي والنفسي، يحيط بكثيرٍ منهم، فيعميهم تمامًا عن رؤية الصّندوق، لكنهم يجيدون الإمساكَ بطرف الخيط جيدًا، يخشون أن يتفلّت منهم.

قال لي حبيبي: لقدْ تغيّرتِ.

ابتسمتُ ابتسامةً خفيفة، لقد لاحظ أخيرًا ذلك!

وضعتُ رأسي المتعَبة على راحتي، وثبّتُّ عيني في عينيه، ثمّ قلت: وماذا أيضًا؟

نظرَ إليَّ بمزيجٍ من الارتباك والدّهشة والحيرة، يبدو أنه لم يتوقّع ردّةَ فعلي، يبدو أنّه تصوّر أنّه سوف يفاجئني بتلك الجملة السّخيفة القديمة التي تحفظها كلّ امرأة، وتنتظرها، وتعلم يقينًا أنّها ستُقال يومًا ما.

ككلّ الرّجال لا يفهمُ أبدًا ما الذي فعلَه بحبيبة العمر، وإلى أيّ مدًى خيَّب آمالها في حياةٍ يبدو أنّها لا توجد إلّا في حكايات الجدّات.

تحيّرتُ، بماذا أردّ، هل أخبره؟ هل أخبره أنّه تركني عشرَ سنوات وحيدة على قارعةِ الوهْم، أنتظر، ولم يأتِ؟

هل أخبره أنّني حين كنت أقول له إنّني أحتاج إليه، كنت حقًّا أعنيها؟ وأنّه حين كان لا يفهمها ولا يذكرها، كنت أموتُ ببطء؟

هل أخبره أنّني حين كنت أطلبُ منه أن نتحدّث قليلًا، كانت لهفتي لكلماتِه تفوق تلك التي تحويها قصيدة عشقٍ ساخنة؟

هل أخبره أنّني قطعت الطريقَ حافية على أرض مُلتهبةٍ أملًا في الوصول إليه، حين كان يسيرُ على أرضه الباردة بتؤدة، منشغلًا بأشيائه، غير ملتفتٍ إليَّ، مغلقًا سمعه دون صرخاتي؟

هل أخبره أنّني زهرةٌ ذابلة، قتلها الجفاف، وماتت وهي ترنو نحْو شلّال، على بعد خطوة؟

هل سيفهم؟ هل سيقتنع؟ هل يمكنه أن يتغيّر؟ هل نبدأ من جديد؟

تضاربتْ في عقلي أفكارٌ كثيرة، وسيناريوهات متعارضة لردّة فعْله حين أخبره بما في نفسي، لم يكنْ لديَّ رغبةٌ حقيقية في إخباره، ربما لأنّني أعلم أنّ الكلام لن يغيّر أيّ شيء، وأنه لن يفهمَ أبدًا.

اختصرتُ على نفسي الطّريق، ونحّيتُ جانبًا كلّ ذكرياتي وأفكاري ودموعي، وابتسمتُ له في حنانٍ قائلة: أنت محقّ، فسامحني أرجوك.



الأذنُ اليُسرى

لم يبقَ إلّا أيامٌ قلائل ويكون لزامًا عليَّ أنْ أُنتزع من جذوري وعالمي، ذلك الوحيد الذي أعرفه، مبنى دار الأيتام العتيق ذي السّور الحجري الآيلِ للسّقوط، واللافتة التي اختفتْ أغلبُ حروفها تحت غبار السنين العجاف.

آنَ الأوان أنْ أنْفتح على العالم، ذلك الغريب، الذي أخشاه.

لطالما حدّقت بفضول وعجبٍ بشاشةِ التّلفاز القديم المعلق في الصالة الزّرقاء الضيّقة بالدّار. شاشة بلاً ألوان، لكنّ خيالي طالما جمح بعيدًا ليلوّن بفرشاته جدرانَ القصور وموائدَ الطعام العامرة بكلّ ما لا أعرفه، فكنتُ أقضم بأسناني الصّغيرة قضمات سريّة، محاولًا تخيّل الطعم المجهول في حلقي الجاف.

أمّا حين تحمل لي وجوه أناس مساكين، ابتساماتهم تشبه ابتساماتي، الزّيف نفسه، المرارة نفسها، التّناقض نفسه، مع لوعةٍ ما بالعيون، فكنت أتخيّلهم يسيرون مثلي بحذرٍ كالبهلوانات، على هامش الحياة، فالطريق في ذلك العالم لا يتّسع حتمًا للجميع.

الشّيء الوحيد الذي عجزتُ عن تخيّل طعمه، كان حضن الأمّ، لكن الأمر بدا لي كما لو كان لذلك الحضن سحرٌ ما، يأخذك أخذًا، يغمسُك في نهرٍ من نور، ثمّ يعيدك طفلًا.

لا بأس، فكثيرون عاشوا وماتوا مثلي دونَ أن يذوقوا- قطّ- ذلك الطعم.

إنّي أخاف العالم كثيرًا، لكنّ معضلتي الكبرى ليست كلّ ما ذكرت، بل هي أذني اليسرى.

فقد أكلَها الكلب.

نعم، هذا ما حدثَ بالضّبط. ألقتني المرأةُ التي حملت بي في كوم من القمامة يومَ ميلادي، وفرّت هاربة، فكنت لقمةً سائغة بين فكّي كلب ضالّ.

كلّ ذلك مقيّد في ملفّي بالدار، فقد بدأ تاريخي بعضّة كلب.

ليتَه أكل قلبي كيْلا أضطرّ إلى خوض تلك الحياة البائسة، أسيرُ خائفًا خجلًا، وجنبي الأيسر يلازم جدرانَ المدينة على الدوام.

لا أعرف ماذا سأقول حين أخرجُ من هنا، إذا سألني أحدُهم عن أذني، فماذا أقول؟ هل تراهم يصدّقونني لو ادّعيت أنها قطعت بسكّين أثناء شجار قديم؟ لا أظنّ هذا، فبقاياها غيرُ المنتظمة والنّدبات العشوائية لا تنبئ بتاتًا عن جرحٍ قطعي، ستقفزُ صورة الكلب إلى أذهانهم حتمًا، ستفضح العضّةُ تاريخي.

ربّما أمْكنني تحمّل فقري وبؤسي ويتمي، فكلّ شيء قابل للتحمّل أو التّجاهل أو التغيير، إلّا أذني، تلك هي المشكلة.

وضعتُ جنبي المنهك على فراشي الجامد وأنا أحاول تجاهلَ الأمر، حتى غرقتُ في نوم عميق.

حلمتُ أنّني تائه في صحراء حمراءَ قانية، تنتشر فيها شجيْرات شوكٍ سوداء قصيرة، وتزحف بها أفاعٍ سوداء نحيلة، فحيحُها عال.

من بعيد، لاح شبحُ شمسٍ باهتة تختفي بين سحبٍ كثيفة، وعلا عواءُ كلب ما، فرُحْت أوسّع الخطى لأبتعد وجلًا، وكلّما ابتعدت علا الصوت أكثر، فأظنّ أنني أسيرُ بالاتّجاه الخاطئ، فأجري بسرعةٍ بالاتّجاه المعاكس، فيعلو الصوتُ أكثر، فأتوقّف، ثمّ أختار اتجاهًا جديدًا فيعلو الصوت أكثر، فأجري كاتمًا صراخي في حلقي.

هببتُ من فراشي فزعًا، وحبّات العرق الباردة تتفصّد على جبيني.

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة صباحًا، مازال الكلّ نيامًا بالدار، لا أحدَ غيري الآن على قيْد اليقظة.

نزلتُ بهدوءٍ من فراشي وتسلّلت إلى الحمّام، وقفت أمام ما بقيَ من المرآة القديمة، وحدّقت بجانب وجهي الأيسر، قفز في عمق المرآة كلبٌ أسود، أغمضتُ عينيَّ بقوّة، وقفزت إلى الخلف بتلقائيّة وأنا ألوّح بذراعي، التقطتُ أنفاسي المتلاحقة وأنا أسندُ ظهري إلى الحائط، ومازالت عيناي معلّقة بالمرآة، وفجأة دهمتني فكرة، إذا سألني أحدُهم عن أذني اليسرى، سأخبره أنّها.... عضّة أمّ.

أيام

كانت السّحبُ تخفي عنّي وجه الشّمس فغمرتني الكآبة، لكنني لم ألبث أنِ ابتسمتُ حين رأيتُ في السّحب وجوهًا أوحشتني.

هذا وجهُ ابنتي كرمة، تلك عيناها، نعم، مازلت أذكرهما جيدًا، ربما تكون قد تغيّرت نظرتها الآن، فتلاشت براءتها، وحلّ محلّها نظرة امرأة ناضجة، ربّما لم تعدْ تعقدُ جدائلها الطويلة كما كانت تفعل دائمًا، أظنّها تعقص شعرَها إلى الأعلى الآن، وربّما ما عادت ترتدي تلك التنّورات القصيرة الزّاهية، أظنّها الآن ترتدي ثوبًا كلاسيكيًّا محتشمًا، ربما لم تعدْ تطلق ضحكاتِها العالية البريئة، أتخيّلها الآن وقد صارتْ تكتفي بابتسامة وقورة هادئة، هكذا تفعل الأيام بنا.

أمّا ذلك الوجه الهادئ هناك، فهو يشبهُ كثيرًا وجه ابني مراد، لا شكّ أنّه قد صارَ أشيبَ الفودين كأبيه، ترى أمَا يزال محتفظًا بابتسامته الهادئة القديمة؟ أم إنّ أوجاع الحياة بدّلتها صلفًا وجمودًا؟

على كلّ حال، لا يهمّ كيف صارتْ ملامحهم الآن، لا يهمّ أن أزعجهم بتطفّلي ورغبتي في رؤيتهم، فأنا لا أحبّ أن أُحمّلهم همومي وأُزعجهم بمرضي وواجباتِ الزّيارة وما شابه، طالما أنّهم طيبون، فلا بأس إطلاقًا.

حتّى أصدقاء الشّباب، لا شكّ أنَّ كلًّا منهم مشغولٌ الآن بمشاكل والتزامات كثيرة، فهل لدى أحدهم في ذلك العالم المجنون وقتٌ للسؤال على عجوزٍ مريض مثلي؟ أعانهم الله.

كما أنّ جاري الودود السّاكن بالدور الأوّل لا يملّ السؤال عنّي كلّ عدّة أشهر، جزاه الله خيرًا، لولاه لشعرتُ أنّي وحيدٌ في هذا العالم، وكلّما زارني سألني إنْ كنت جائعًا، في الحقيقة أني تعوّدت ذلك الشعور، فلم يعد مزعجًا بالنسبة لي، فلماذا أزعجُ به غيري؟ فما أسوأ أن تشعر أنّك ثقيل على الآخرين!

لكنّني أحسّ أنّ المرض استفحل في جسدي، ولن تطول أيامي حتى زيارتِه القادمة، وأخشى إنْ متُّ أنْ أُرهقه بحَملي وتكفيني ودفني، خطرت ببالي الآن فكرة جيدة.

كم السّاعة الآن؟ آه تذكّرت إنّ ساعتي معطّلة منذ سنوات، على العموم فالشّمس مازالت مشرقةً بالخارج، الوقت مناسبٌ إذا.

نهضتُ من فراشي بصعوبة، بدّلت ملابسي، دسستُ في جيبي ما تبقى من معاشي، وطويتُ غطاءً في حقيبة صغيرة، اتّكأتُ على عصاي، ونزلتُ السّلم في هدوء، أشرتُ إلى سيارةٍ أجرة، وطلبتُ منها إيصالي إلى مدافن عائلتي، عند أطراف المدينة.

وهناك، منحتُ الحارسَ بقشيشًا سخيًّا، وطلبتُ منه تجهيزَ قبر لجثة جديدة، عليَّ أنْ أُعدَّ كلّ شيء، فلا أُثقل لاحقًا على الآخرين، أيامٌ باقية لن تصنع فارقًا، المهمّ ألّا يحمل أحدهم همي.

تركتُ الحارس يعمل بهمّة، واستندتُ إلى أحدِ شواهد القبور، ورحتُ في نومٍ عميق، تلاقيت فيه مع أرواحِ كلّ الذين غادروني منذ سنين.

أيقظني الحارسُ بعد الغروب، وأخبرني أنّ القبر الجديد بانتظار صاحبه، شكرتُه بحرارة، لكنْ كان عليَّ التحقّق بنفسي.

استترتُ بالظّلام، متجنّبًا الحارس، وتوجّهتُ إلى المقبرة، تسللتُ بخفة، خلعتُ ملابسي والتحفتُ بالأبيض، تمدّدتُ في قبري بسلام، ورُحتُ أنتظر.



فتافيتُ سكّر

كنتُ غاضبةً جدًّا؛ كلّ حواسِّي ثائرة، دائرة في عقلي حروب، منطلقة في الطريق كقذيفة عمياء، تمرُّ المَشاهد أمامي كشريط سينمائيٍّ سريع، مزدحِم بوجوه قبيحة، تُصرُّ جميعها على إلصاق أنوفها بعدسة التصوير، ثمّ تضحك ببلاهة، جاحظةَ الأعين و... تختفي فجأة.

أحسستُ أنَّ رأسي يدور، أو ربما كنتُ على حافّة الجنون، لطالما رعبتْني تلك الحافة، التي شدتني إليها منذ سنين، وفي كلّ مرّة كنتُ أتراجع بقوّة وثبات، لكنّني هذه المرّة، أشعر وكأنّ الحافّة تتهاوى تحت قدميَّ بالفعل، والسّقوط حادثٌ لا محالة.

تتسابقُ أحجارُ الرّصيف البيضاء والسوداء لتَلحَق بي، بينما تهزّ الشُّجيرات الصغيرة أوراقها وتُشير إليَّ بإشارات ما، لكنني لم ألتفت إليها، فقدْ كنت متعجّلةً للغاية، فمازالت أمامي رحلةٌ طويلة.

أضواءُ إشارات المرور تتراقص بانتظام شديد، بينما تتجاهلُها السيارات، وتَخلُق لنفسها نظامًا من الفوضى في غاية الإتقان، ومازالت إشارات المرور لا تَمَلُّ أبدًا تبديلَ ألوانها.

صُراخ أبواق السّيارات الغاضبة يقتحِم رأسي، يكسر السلاسل ويُحطِّم كلّ ما يجده في جمجمتي العظمية المزدحِمة بالشّقوق، لكنّه- رغم كلّ شيء- يُطرِبني،

كفاه أنّه يطغى على أصوات أخرى تصرخ في ضميري.. بينما خُطُواتي تتسارع، في إيقاع غايةٍ في الدقّة، هكذا يفعل الآلِيُّون، وكذا مَن باتتْ تستوي لديهم الأشياء، وكذا الذين غادرَتْ أرواحُهم الدافئة، وأنا كلُّهم معًا، فأستطيع أنْ أفعل ذلك بمهارة.

قطع خواطري ارتطامةٌ قويّة بامرأة، لا أعلم كيف حدث ذلك، لكنني ارتطمتُ، صرختُ وأنا أسقط، ثمّ اعتدلتُ ورفعتُ رأسي، فرأيتُني، نعم؛ هذا ما حدث بالضبط.

وجدتُني أمامي، اتسعتْ عينايَ دهشةً، ورحتُ أَفرُكها بعنف، لكن لا فائدة، إنها أنا، تُحملِق فيَّ في دهشةٍ لا تقلُّ عن دهشتي!

كانت أنا، ترتدي إيشاربًا عربيًّا أزرق، يتدلى منه كراتٌ مختلفة الألوان من الصّوف، يشبه ذلك الذي ارتَدَتْه المِصريات في الحارات الشعبية، في منتصف القرن الماضي، وكذا سُترة بيضاء كلاسيكية، وتنُّورة حمراء قصيرة منفوشة، بينما انسدلَ على كَتِفها فَرْوٌ أسود فاخر، وعلى الكَتِف الآخر وقف عُصفور مُلون يَرمُقني بغموض.

لكنّ وجهها كان خاليًا تمامًا من المساحيق والأصباغ، على عكس ما تعوّدتُ مَظْهري، كان جوربها خفيفًا لامعًا أسود اللون، ينتهي في حذاء رياضيٍّ أخضر اللون، ذي كعبٍ عالٍ دقيق للغاية، وكانت تُمسِك في يدها سلّة، بها إوَزَّة تصيح بلا انقطاعٍ، وفي اليد الأخرى حقيبة بيضاء مُطرَّزة من ماركة عالمية.. تأملتُ مظهرها بذُهُول، يستحيل أن تكون أنا، لكنها أنا!

انفرجَتْ شفتايَ قليلًا لأتكلم، فانفرجتْ شفتاها بنفس المقدار في نفس اللّحظة، تراجعتُ، أطبقتُ شفتيَّ، ففعلتْ مثلي.

قامت من الأرض تَنفُض تَنُّورتها، أعادت الإوَزَّة إلى داخل السلة، رمقتْني بنظرةٍ ساخرة، ومضتْ في طريقها.

التفتُّ خلفي، ومددتُ يدي في الهواء كمن يحاول أنْ يمسك شيئًا ما، حاولتُ أن أنادي عليها– أو قُلْ: عليَّ– لكنّ صوتي خرج ضعيفًا مُحشرَجًا، ابتعدتْ بسرعة، لكنّ صياح الإوزة بدا لي مسموعًا وطاغيًا على ضوضاء الشّارع، حتى بعد أن اختفت تمامًا عن ناظري.

ارتكنتُ إلى الحائط، وقمتُ بصعوبة، نفضتُ سروالي ببطء، وربّتُّ على رأسي، نظرتُ حولي بتمعُّن للمرّة الأولى منذُ خرجتُ من البيت، لم أعرفْ أين أنا بالضبط، يبدو أنّني قد سرتُ كثيرًا جدًّا، نظرتُ إلى السّاعة، فاكتشفتُ أنَّ أكثر من ثلاث ساعات مضَتْ وأنا أسير.. توقّفتُ حائرة، والكلّ يمرّ حولي مُسرعًا في كلّ اتجاه، أصوات كثيرة متراكِبة، ورنينُ الهواتف المتداخل يُشبه كابوسًا بشعًا.

حاولتُ أنْ أتّخذ قراري بالعودة، لكنّ حاجزًا ضخمًا وقف بيني وبين قراري، أنهكتْني الحَيْرة، وراحت مطارقُ عملاقة تدقُّ رأسي المكسور.. كفتافيتِ سكّر أنا، سقطَتْ في فنجان قهوة، موجودةٌ بالتأكيد، مؤثرةٌ ربما، لكنها ذائبة تائهة، عاجزة عن اتخاذ القرار بالانفصال، أحيانًا تصبح خطوةٌ واحدة للوراء ضربًا من المستحيل.

إنْ عدتُ فسأظلّ حبيسة، وإنْ واصلتُ الهروبَ فلن أجدَ أبدًا بابَ المتاهة، فلماذا أتكلَّف مشقّة العودة؟

شَعَرتُ بارتياح لقراري الأخير، فواصلتُ السَّير، ودلفتُ إلى أوّل محلّ تِجاري رأيته، ابتسمتُ بثقةٍ وأنا أرتدي أمام المرآة تنوّرةً حمراء وسُترة بيضاء، خرجتُ إلى الشّارع بحماس؛ لأبحث عن إوَزَّة.



آيلٌ للسّقوط

اعتدلتُ في الفراش حين دوّى في أذني نعيقُ البوم، مددتُ يدي فجذبتُ كرسيَّ المتحرك قريبًا منّي، وتدريجيًّا نجحتُ في إلقاء جثتي فوقه، استرددتُ أنفاسي، مسحتُ على وجهي ببطء، كمَن يُحكم إغلاق فوّهة بركانية، بألواحِ صبر.

أدرتُ عيني في الحجرة بحثًا عن شربةِ ماء أو لقمة، لكنْ يبدو أنَّ رزقًا لم يأتِ بعد، شعرتُ بنارٍ اشتعلتْ في قلبي، فدفنتُها بسرعة تحت تراب ضعفي.

دفعتُ كرسيَّ وخرجتُ من حجرتي إلى الحارة مباشرة، كانت الوجوه مختلفةً، مسحة من حزن، وألسنة لهبٍ شابَّة في العيون.

لا أعرفُ بالضّبط، لماذا السّماء اليوم سوداء، معكّرة بسحب غاضبة، تضطجعُ في أماكنها بكسل، رافضةً أنْ تهطل على يَبابِ عمري، بل أحسبها تتلذّذ بحرماني.

كان صياحُ الأطفال يملأ المكان، يجرون كعادتهم حفاةً شِبه عراة، اختفت ألوانُ بشرتهم الحقيقيّة تحت طبقاتٍ من التّراب اللزج، لا يزينهم سوى ابتسامات، أظنّ سرّ وجودها الوحيد، هو عجزهم عن إدراك حقيقة واقعهم.

لم يكنْ يمنعهم عن اللّعب جرادلُ الماء المتّسخ التي تلقيها بِغِلٍّ تلك المرأة التي يزعجها صياحُهم الذي لا يهدأ.

كانوا يستمتعون بالحياة حتّى الثّمالة، وإنْ لم تتوفّر لهم أسباب المتعة، ففي القلوب وحدَها تتفجّر ينابيع الفرح، وإنْ كانت الأجساد شقًّا في صحراء العطش.

لم تتأخّر جارتي العجوز عن الوقوف بشُبَّاكها كعادتها لتصيح بكلّ الشّتائم التي تعرفها، سيلٌ من السّباب لا ينقطع في الليل أو النهار، حتى صارَ صوتها الحادّ المزعج جزءًا أساسيًّا من ارتباطي بالمكان، وجزءًا من طفولتي وشبابي.

أمّا صوت ارتطام زهْر الطّاولة بالقاعدة الخشبية، ممزوجًا بصوت اصطكاك الملعقة بجدار الكوبِ الزجاجي، وصوت التّلفاز المُشوَّش، وصيحات لا تهدأ تنبعث من المقهى القديم، وصوتُ صاحب المقهى الأجشّ الذي يظهرُ فجأةً من حينٍ لآخر، ربّما ليذكر الآخرين بوجوده في عالمه الصّاخب المُغيَّب، فربما كان ذلك هو أقلّ ما يخترق أذني من إشارات سريّة تحاول إقناعي بعبثيّة الحياة.

ربّتتْ على كتفي فجأةً يدٌ أعرفها جيدًا، استدرتُ بكرسيَّ ورفعتُ رأسي.

– كيف حالك اليوم؟

بادرني بالسؤال.

أطرقتُ صامتًا، أُراجع تثبيتَ ألواح الصبر على الفوهة.

انحنى واقتربَ من وجهي حتّى لفحتني أنفاسه الباردة، همسَ في إشفاق واضح:

– اصبرْ، فالله يبتليك ليعوّضك في الجنة.

صرختُ بلا مقدّمات:

- لا أريد جنّة، أريد أنْ أعيش كإنسان، أريد كرامتي.

استرددتُ أنفاسي المتقطّعة، ثمّ أردفت:

- "يومًا ما تحرّك ماء روحي الرّاكد، أخذني الشوق أخذًا للتواصل مع الله، فكنتُ حين أصلي، حين أهمسُ الله أكبر، أنسلخ تمامًا من عالمي الأرضي، تسبح روحي بين أمواج الأثير، وتتلفّت لاهثة في كلّ اتجاه، كجهاز راديو يحرّك أحدهم مؤشّرَه محاولًا التقاط موْجةٍ يعلم إمكانيةَ وجودها، لكنّه لا يعلم بالضّبط مكانها ولا إمكانية الْتقاطها، لكنّه يظلّ يدير المؤشّر بحثًا عنها.

هكذا كنت أتمتمُ بصلاتي ببطء وتركيز، أضغط على الأحرف كما لو كنت أُشربها روحي، أمدّ الحروف كصرخة استغاثة هادئة من قلبِ مولعٍ بالوصل.

أركعُ فتركع روحي، وأحرفي، ومشاعري، أسجد، فيسقط على الأرض كلّ كبريائي ورغباتي ووجودي، لا شيء غير الوصول يشغلني، ولا شيء غير اليقين يملأ عقلي.

لا شيء غير الشّعور به أرغبه، لا شيء أحلم به سوى علامة.

أتحسّس الوجود بأناملِ روحي المتعَبة، بحثًا عن أثر. أصمت، حتى أكادُ أوقف دقّات قلبي لأرْهِفَ السّمع.

أتلهّف لأن أجدَ أثرًا أو وصلًا، كلهفة الظّمآن لقطرة ماء.

لكنّه لم يسمعني، لم يردّ ندائي، لم ينقذني مما أنا فيه، فلم أعدْ أناديه منذُ زمن بعيد، ولن أفعل".

سكتُّ فجأةً عن الكلام وقد أدركتُ أنَّ ألواحي تكسّرت، وانطلقتْ قذائفُ يأسي دفعةً واحدة.

انسابتْ دموعه، فبلّلتْ ثوبي البالي، مدَّ يده، وشفاهُه ترتجف، دفعتُه بعيدًا بقسوة، أدرتُ كرسيَّ وقرّرت العودة إلى سجني الصغير.

كان الكرسي ثقيلًا جدًّا، أثقل كثيرًا مما عهدتُه، دفعتُ بابي بعنف، ودلفتُ إلى سجني.

وجدتُ الجدران تقترب، نعم.. تتحرّك من أماكنها وتقترب، لقد قررتْ أنْ تُطبق عليَّ أخيرًا، حتى السّقف، لأوّل مرّةٍ أدرك أنَّ السقف بهذا الانْخفاض، أحسُّ أنّه ليس بإمكاني رفع رأسي بالكامل.

انهمرتْ دموعي، لكنّها لم تكنْ دموع حزن، بل كانت دموعَ العاجز المقْهور، دموع الثّائر المقيّد في أغلال، الذي يعلم يقينًا أنَّ التخلص منها مستحيل.

- آآآآآه

ظللتُ أدقّ بقبضتي ذراعَ الكرسي وأصرخُ زمنًا، زمنًا لم يتوقّف فيه صياح الأطفال، ولا نعيقُ البوم، ولا سُباب الجارة، ولا ارتطام زهر الطاولة بالخشب، ولا صياح تلك الرّؤوس العظمية المجوّفة.

واكتشفتُ أنّي كنت أصرخ وحدي في قفْر نفسي، توقفتُ فجأة، وقد أصابني الإعياء، وانْهارت كلّ خلاياي رافعةً راية بيضاء.

– عرفتُ لماذا بدتِ السّماء سوداء معكّرة، وعرفت لماذا قلبي اليوم ثقيل كحجر.. لو أنّني وجدتُ الله!

قلتُها ودمعي يُعميني..

شعرتُ أنَّ شرايين دماغي تنبض بقوّة، وروحي تنتفض في جسدي مطالبةً بالحريّة، لم أكن يومًا حريصًا على الحياة.

– ربّما لو عرفتُ سببَ وجودي لاختلف الأمر.

مرَّ بذاكرتي سريعًا ذكرياتٌ كثيرة متتابعة، بينما توقّف الزمن عند ذلك اليوم المشئوم، حين دهسَ ساقي القطار، وفقدتُها، وفقدتُ مستقبلي معها.

حاولتُ أنْ أهرب من تلك الذّكرى البشعة، دوَّى في أذني صراخ عجلات القطار وصافراته وهو يجري بسرعة، فينقضّ على قدمي المحشورة بين القضبان كوحش!

علا هديرُ القطار في رأسي أكثر.

– كفى.

صرختُ، وأمسكتُ رأسي بيدي وضغطتُ بكلّ قوتي.

لكنّ صوتَ القطار يعلو أكثر.

- كفى.

علا صراخي أكثر.

قرّرتُ أنْ أُنهي مأساتي، اندفعتُ بالكرسي ناحية السكين القابعة فوق الطّاولة، قبضتُ عليها واعتصرتُ مِقبضها بأصابعي، رفعتُها فالْتَمع نصلُها الحادّ مُبحلقًا فيَّ بتحدّ، حدّقتُ فيه بغيظ، ثمّ قذفتها بقوّة في الهواء.

- مازال جزءٌ فيَّ متشبثًا بالحياة، يرْنو إلى ما لا يصدِّق ولا ينكر.

هدأتُ قليلًا، ففتحتُ شباكي، وتنفّستُ الحياة، وقررتُ أنْ أنتظر، لا بدّ أنْ أنتظر، لعلّ غدًا ينبُت لي ساقان، أو ينبت قلبٌ؛ فأجدُ الله!

واحد.. اثنان

دقّت الساعةُ الخشبيّة معلنةً انتصاف الليل، بدأت أعدّ- كعادتي- معَ وقْع خطوات عقرب الثّواني؛ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة، قطع عدّي لمسةُ أناملها الرّقيقة لجبهتي، وتسلّل صوتها الملائكي إلى أذني يشدو بآياتٍ من القرآن، كعادتها حينَ ينتعش في روحها الأملُ أن ينفكّ جسدي من عقالِه، وأعود للحياة.

راحتْ تمرّر أصابعها على خدّي، جبهتي، شفتي، بينما تساقطت دموعها النّدية على وجهي لتسقي بذورَ الأمل فيّ من جديد، وتذيقني ما لم أذقْه قبلَ المحنة.

ممدّد أنا هنا كلوحٍ خشبيّ منذ مائة وخمسٍ وثلاثين يومًا، لا شيء أفعله منذُ الحادث غير العدّ.

لا شيء فيَ ينبئ أنّني على قيد الحياة سوى طرقات يائسة تتردّد في صدري، ولمعة في عيوني المتحجّرة لم تذوِ بعْد.

السّاعة الخشبية الكبيرةُ تتوسّط الحائط المواجه لي تمامًا، عقاربها الذهبية الثّلاثة تزحف ببطء، كحيّات، تنفثْنَ في روحي سمَّ الانتظار، تتعاقب

الحيّات الثلاثة على روحي كلّ يوم ٨٦٤٠٠ مرّة، أعدّهم كلّ يوم، كم أكرهُ العقارب، والزّواحف كلها، والأرقام، والنّور، كم أكره النور!

كعادتها، راحت تحادثني وتحكي لي حكاياتٍ مضحكةً عن تصرّفات صغيرتي في المدرسة، فأضحكُ ملء قلبي، ووجهي جامدٌ كصخرة.

ثمّ تحكي لي عنْ ولدنا الكبير ودراسته وأصدقائه ومشاكله. إنها تحكي كما يفعلُ الأحياء على شواهد القبور، يعلمون أنّ ذويهم لا يسمعونهم، لكنّهم يتلمّسون في الحديث مع الرّفاتِ نفحةً من الأنس، قطعة من الذّكرى، لحظة مِن وهم أنّهم معهم، يشاركونهم مشاعرهم السرّية.

لكنّني لستُ رفات بعد، أنا روح ماردٍ سُجن في جسدِ عاجز، وأقسم إنْ عادَ للحياة، أنْ يصرخ ويبكي ويضحك حتّى الموت... أو حتّى الحياة.

ليتني أستطيع أنْ أخبرك أنّني أشعر بك، أسمعك وأفهمك، ليتني أستطيع أنْ أتغشى روحَك الظّمأى إلى عشقي، ذلك العشقُ الذي لم يفترْ في قلبك لحظةٍ رغم قسوة الزمن.

ليتني أستطيعُ أن أحكي لك عمّا فعله بي سجني في جسدي، ليتني أحكي يا حبيبة العمر.

خلف هذا الجسد الميّت والوجه الحجري، يقبعُ بركانٌ، بركان يقذف حممَ الغضب واليأس والثّورة والعشق، بركانٌ لا يهدأ أبدًا. لست رفات يا حبيبتي، فلتسمعيني.

عدّلت الغطاءَ على جسدي، وتأكّدت من وضع الوسادة تحت رأسي، قبّلت جبهتي، وقامت لتغادر الحجرة.

"انتظري يا حبيبةَ الرّوح، لم أشبعْ من صوتك، قلبي ظامئ يا حبيبتي، فلترْوه بالدّموع"، ناديتها دون كلام، صرخت من أعماقي أنِ انتظري، صرخت بكلّ روحي أنِ انتظري، لكنّها كانت قد مضت.

لماذا تتركني وحيدًا، متعَبًا، تترنّح على شفتيّ الكلماتُ ثمّ تتهاوى؟! لماذا تتركني ملقًى بين آلاف الأفدنة الجرداء على فراشٍ ضيق؟

سكتَ الصّراخ بداخلي فجأة، واستسلمت.

بدا لي قرعُ عقرب الثّواني عاليًا جدًّا، يتسرّب من ثقب أذني إلى روحي الحبيسة بداخلي، كفأرٍ حاصرته المياة في سفينة غرقى.

نفضتُ عن رأسي أفكاري السّوداء حين أطلّ القمر عبر الستارة الرقيقة يغزلُ خيوطَ النور، ثمّ يسدلها على وجْه السّماء، حتى لامستْ أطرافُها شجيرةَ الورد.

انسلّت روحي بخفّة عبر الشّباك، شدَدْتُ خيوط النور برفق، تبسمتُ للورود التي مدَّتْ أعناقها تراقبني بفضول، ضبطتها، وترًا وترًا، ثمّ بدأت العزف.

عزفتُ وحدي، بمهارة، أنا الذي لا يعرف كيف يقرأ نوتةً موسيقية، لكن قيثارةُ النّور كانت تهمس لي مرحةً، ملقّنةً إيّاي أسرار الموسيقى.

عزفتُ، فغمر السّماءَ لحني، تمهّلتْ أسرابُ الطيور المهاجرة، وتسمَّر قطيعُ السّحب النازحة، تجمّدتِ الريحُ، وكفَّتْ أوراقُ الشجر عن الحفيف، تفتّحتِ الزهراتُ الصّغيرة، وأطلّتِ السناجبُ برؤوسها من قلوب الشجر، اصطفَّتْ آذانُ الكون؛ تُرهف السّمع، وانسكبَ وجداني وحلمي كلّه فوقَ الوتر.

حدَّثتُ نفسي، مازلتُ وحدي، ولحظات، ويرحلُ القمر، وتذوب خيوطُ القيثارة عند شروق الشمس!

تُرى، هل تمنحني الشّمس خيوطًا جديدة، أو يطلق سراحي؟!

أم أنَّ لحني ها هنا انتهى، وأظلُّ وحدي؟!

دقّت الساعة الخشبيةُ الكبيرة معلنةً الواحدة بعد انتصافِ الليل، دققتُ رأسي المتعَبة بكلّ قوّتي في جدار يأسي، توقّفت الساعة عن الدّق، وبدأ عقربُ الثواني يدقّ بكعبه الوجود، فعدتُ تلقائيًّا للعدّ؛ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة....



تحتَ الصّفر

أحكمتْ ياقةَ معطفِها الصّوفي حول رقبتها، وأسرعتِ الخطى على رصيفِ المحطّة القديم.

كانت السّحبُ غاضبة، تقذفُ أمطارَها في قسوة، فتسيل على جبهتها وتغرقُ وجهها، لكنّها لم تحاول أن تتّخذ ساترًا من المطر كما فعل الجميع، بل تركتْ حبّات المطر تذوبُ على وجنتيها بنشوة.

- يفعل المطرُ بالقلوب تمامًا مثلما يفعله الدمع.

دوّت صافراتُ القطار، فاندفعت كتلٌ بشرية باتجاه الأبواب.

اتّخذت ركنًا قصيًّا، والتصقت بالحائط، تراقبُ في صمت تلك العيون اللّاهثةَ للرّحيل، حتى خفتتْ حدّة الزّحام، فمضت باتّجاه الباب، وركبت كالجميع.

ومِن شباك القطار، كانت الأرضُ تجري لاهثة للوراء، تاركة إيّاها غارقة في قطرةِ دمع، ترشف قهوتها الباردةَ الخالية من السّكر، وتبتلعها بآلية، دون أنْ تسخط على مرارتها، فثمّة مرارةٌ عالقة بحلقها، يذوب داخلها أيّ طعمٍ آخر.

كان هديرُ عجلات القطار يصرخُ بلا توقّف، في سيمفونية حزنٍ كاملة!

كانت ترهف السّمع للعجلات، وتمنحُها روحَها كلّها، لا يشغلها أيّ صوتٍ آخر، ربما لأنّ الرّحيل قصّتها، ربما لأنّ المكان عقدتها، ربّما لأنها تؤمنُ أنّك حين تسافرُ لا تعود أبدًا كما كنت.

توقّف القطار في محطّات كثيرة، عيون تصعد وأخرى تنزل، ألوان كثيرة، أعمارٌ متباينة، تعبيرات وجوه متناقضة، أطفال، شيوخ، وما بينهم من أبناء الزّمن، أشباحٌ كثيرة تجري لتلحقَ بالقطار عند كلّ محطة، وتتنفس بارتياح حين تجد لها مكانًا، وأشباحٌ أخرى تلمح دموعَها من بعيد حين يفوتها القطار.

كانت تترجمُ تلك المشاهد بشكلٍ مختلف، تغبط أولئك المنتظرين، وتعجب مِن شكواهم طول الانتظار!

فما أمتعَ الانتظارَ إذا كنت تعلم أنّه حتماً آت، وكلّما طال الزمن، تؤنسُك أحلام فرحة اللقاء.

المساكين هُمُ الذين ليس لديهم ما ينتظرونه، لا أمل، لا رجاء.

همستْ لنفسها وابتسمتْ بمرارة: القطارُ وسيلةُ تحرّك، من نقطة التيه الأولى إلى نقطة التّيه الثانية، لا أكثر!

وعادت تديرُ عينيها في الوجوه، بين ثنايا الجباه، بين فرجة شفاه صامتة، بين أمواج العيون الهادرة بالأمنيات: إنّهم واثقون أنّهم في الاتجاه الصحيح. همستْ لنفسها.

أحسّت أنّ الآخرين يقرأون أفكارَها بسهولة، ككتاب مفتوح، ارتبكت وأطرقتْ، ثمّ تشاغلتْ بالنّظر إلى الساعة، وكأنها تتعجّل الوصول، تمامًا كالآخرين.

– ربّما يحدث أمرٌ بعد حين فأصيرُ مثلهم، أعرف محطّتي جيدًا، وأتعجّل الوصول.

وفجأة، دلفَ إلى مقصورة القطار، وجلسَ على المقعد المواجه لها.

أحسّت بروحها تتسلّل خارجةً من جسدها، وببردٍ قارسٍ يسري في أوصالها، لم تشكّ لحظةً أنّه هو.

– ربّما تغيّرت عيناه قليلًا، فاعتراهما بعضُ الذّبول، وارتخى جفناه قليلًا، ربّما اسمرّت بشرتُه قليلًا، وعرفت التّجاعيد الطريقَ إليها، ربّما تراجع شعرُه إلى الوراء قليلًا وتخلّلته شعراتٌ بيضاء، لكنه هو.

تسمّرت عيناها عند خنصره، تتأمّل خاتمه الفضيّ بحرقة، ثمّ تعود كسيرة إلى أصابعها الخالية.

تمنّت أن تتكلّم، أن تقول له:

– أنا هنا يا حبيبي، فلتمنحني لحظاتٍ من الحياة.

لكنّها تذكّرت في ضيق وخجلٍ شعْرَها القصير الذي غزاه البياض، ووجهَها الذي اختلف كثيرًا عن آخر يومٍ قابلته فيه، ثمّ اختارت الصمت.

لكنّها لم تطقِ الصّبرَ أكثر، خانها لسانها ونطق:

– أكرم.

نطقت اسمَه بلهفة، بلا مقدّمات.

رفعَ رأسه ناحيتها بدهشة، ثمّ تجمّد كتمثال حين تلاقت أعينهما.

فالعيون وإنْ غزاها الهرمُ.. تظلّ تحمل بصمةَ عشقها.. التي لا تخطئها العيون.

هبَّت عليهما موجةٌ ساخنة، أذابت ثلوجَهما، وأشعلت النار، موجة احتوتهما وحدَهما، إعصار انتقاهما من بين كلّ الوجوه، وراحَ يدور بهما ويدور، في حين كانت تتساقطُ عليهما أمطار الذكرى.

لم تعرفْ كمْ مضى بالضبط، وعيناه الدّامعتان ملتحمتان بعينيها، تتبادلان كلماتٍ انتظرت عمرًا حتّى تُقال.

وفجأة، هبّ من مقعده، وجلس بجوارها، تناول كفّها بلهفة، وأغرقها مطرًا من القُبُلات.

– انتظرتك.

أطرقَ لحظة، وبدا لها في عينيه ضعفٌ وانهزام.

انحبستِ الحروف في حلقها، فمرّ الوقت دون كلام، التصقت العيون والأكفّ، وقالوا ما يعجز الكلمات.

دوّت صافرات القطار، كانت أعلى كثيرًا مما عهدتها، مُفْعمة بالشراسة والقسوة.

توقّف القطار، عليه الآن أن ينزل، فقد أعلنتِ السّاعة انقضاء لحظات الحياة.

انتزعَ يدَه من يديها انتزاعًا.

استجدتْه عيناها أنْ يأخذها معه، فصرختْ في عينيه ألفُ لا.

- لكنّ الحبّ باق.

قالها ونزلَ من القطار متباطئًا، يلتفت مع كلّ خطوة للخلف.

دوّت صافرات القطار مرّة أخرى، وبدأتِ الأرض تتحرّك، وعيناه مازالتا معلقتيْن بعينيها.

لوّحت لصورته الضّبابية من خلف دموعها، لملمت معطفَها حول جسدِها المرتعد، ثمّ عادت إلى مقعدها.

حدّقت طويلًا في مقعده الخالي، سألتها امرأةٌ في المقعد المجاور:

- كمِ السّاعة الآن؟

ردّت في شرود، وهي تشدّ معطفهاعلى جسدها:

أظنّها تحتَ الصّفر.



الظّلّ

خرجتُ من المدرسة في ذلك اليوم أقفزُ مع صاحباتي كعادتي، كنّا نضحكُ ونثرثر عمّا فعله مدرّسُ العلوم الجديد، حين انفجرَ فجأةً أنبوب التّجارب، وفسدت كلّ خطواتِ التّجربة التي قضى أكثرَ من نصف ساعةٍ في شرح خطواتها لنا، حين مالتْ صديقتي على أذني هامسة:

- عندي لك مفاجأة.

نظرتُ إليها بعينين متسائلتين، فأردفت تقول:

- تعالي معي إلى البيت وستفهمين كلّ شيء.

هززتُ رأسي بالموافقة، وانعطفنا يسارًا باتجاه بيتها.

في حجرتها، أغلقتِ البابَ بالمفتاح، ثمّ أخرجتْ من درج مكتبها من تحت كومةِ الكتب كتابًا أزرق، الغلافُ منثورة عليه زهراتٌ وقلوب، تتوسّطه شجرة كبيرة مورقة.

نظرتُ إلى الكتاب بتساؤل، منتظرةً منها أن تخبرني عن الأمر، فقرّبته وهمستْ لي بخبث:

- ألا تلاحظين شيئًا؟

أجبتُ ببراءة:

- لا شيء لفت نظري.

ضحكت ضحكةً عالية خبيثة، وهمست مرّة أخرى:

– دقّقي أكثر.

عاودتُ النّظر، فاكتشفت وجود ظلِّ رجلٍ يقبِّل امرأةً متداخل مع رسم الشّجرة، شهقتُ من المفاجأة ووضعتُ يدي على فمي.

انخرطتْ صديقتي في نوبةِ ضحك، وقالت وهي لا تكاد تتمالك نفسَها:

– توقّعت ردّةَ فعلك.

ثمّ أردفت تقول بلامبالاة مصطنعة:

– هل تريدين قراءةَ الرواية؟

احمرّ وجهي وصمتُّ قليلًا، ثمّ همستُ بخجل:

– رواية حبّ!

ردّت صديقتي في ضجر:

– إذا كنت لا تريدينها فسأعطيها لنسرين، لقد طلبتْها منّي أكثر من مرّة.

مددتُ يدي نحو الرواية بتردّد، ثمّ قلت:

– سآخذها.

التمعتْ عينا صديقتي، وهمست:

– انتبهي للصّفحة تسعين، فقد قرأتها ستًّا وثلاثين مرّة، حين قبَّل البطلُ البطلة.

انخرطْنا في نوبةِ ضحك، ثمّ ودّعتني صديقتي عند الباب وقد أخفيت سرّي بين كتب المدرسة.

دلفتُ إلى البيت يومَها وقلبي يدقّ، تلفتُّ حولي ثمّ دسست سرّي تحت مرتبةِ سريري فوق ألواح الخشب، وقد عقدت العزمَ على قراءتها حين يخلد الجميعُ إلى النوم.

عند تمام الحادية عشرة، تيقّنت أنّ البيت هادئ تمامًا فأخرجت الرواية من مخبئها، حملقتُ قليلًا بصورة الغلافِ والظلّ المختبئ بين فروع الشجرة، ثمّ شرعت أقرأ.

كانت المرّة الأولى التي أقرأ فيها روايةَ حبّ، فراح وصفُ الكاتب لمشاعر البطلةِ يقع من قلبي موقعَ طلاسم سحريّة، تفكّ شيفرة عالم غامضٍ حبيسٍ في روحي، لم أعلم يومًا أنّه موجود.

ومع دقّات الثانية عشرة، أغلقت الرّواية، أعدتها لمخبئها، وألقيت بجسدي المنهك على الفراش.

لم يكنْ ما شغل عقلي وقتَها امتحان العلوم الذي سأواجهه بعد سويْعات قليلة؛ بل ذلك العالم الجديد، الذي انفتحت بوّابته فجأة، وغرقتُ في تفاصيله المدهشة.

أغمضتُ عينيَّ واستسلمتُ لنومٍ لذيذ، داعبتني فيه أحلامٌ مختلفة، لظلٍّ وشجرةٍ كبيرة.

التمعتْ عينا صديقتي حين رأتْ وجهي في الصّباح، فقد فضحت هالاتُ عينيَّ سهَرَ الأمس.

أمسكتْ يدي بحبور وسألتني:

- إلى أيّة صفحة قرأت؟

ضحكتُ بخجل وقلت:

- لم أصلْ بعدُ للصّفحة التسعين.

تعالتْ ضحكاتنا الطّفولية، ومضينا معًا لامتحان العلوم، في حين كانت روحي تحلّق بعيدًا.

عدتُ من المدرسة وعيناي تتعلّقان بالساعة، ألقي إليها نظرة كلّ حين، متلهّفة لمجيء السّاعة الحادية عشرة لأتابع القراءة.

ومع دقّات السّاعة العاشرة، دلف أبي إلى الحجرة، ونظر لفراشي وسألني:

- أليست معدّات التصليح بالكرتونة البيضاء هنا تحت فراشك؟

لم ينتظرِ الردّ، ومدّ يده بتلقائية ليرفع المرتبة، فاستدرتُ بكلّ جسمي معطيةً ظهري إيّاه، وقد علتْ دقّات قلبي حتى ظننت أنّه صار يسمعها، تدفّق العرق غزيرًا على وجهي ورقبتي، وقد أمسكتُ بحافّة المكتب لأقاوم السّقوط على الأرض.

سيرى الكتابَ، سيَرى الكتاب، سَيَرى الكتاب...

تردّدت الجملة في رأسي ألفَ مرّة خلال ثانية واحدة.

انتشلني أبي من إعصاري بقوله:

- لكنّ ظهري يؤلمني قليلًا، لا داعي لأيّة إصلاحات اليوم.

وبهدوءٍ غادر الحجرة.

دونَ أن أستدير ناحيته، ارتميتُ على الكرسي، وأمسكت رأسي بيدي وقد علمت أنّ أبي رأى الكتاب المخبوء، فترك الكرتونة وخرجَ من الحجرة ليرفع عنّي الحرج.

شعرتُ بضيق عظيم، فاسْمُ الرّواية فاضح لمضمونها، وسيصبح الوضعُ أسوأ لوْ لاحظ الظّل على الغلاف، كيف سيفكّر بيَ الآن؟

حاصرتني الأفكارُ السّوداء، وضاق صدري حرجًا، فقضيت ليلتي أبكي وأندمُ أنّني أخذت الرّواية من صديقتي.

وفي اليوم التّالي، عدت من المدرسة وأنا أحمل همّ أنْ تلتقي عيناي بعيني أبي، ففتحت البابَ بالمفتاح برفقٍ وأنا أنوي التسلّل لحجرتي بسرعة، لكنني ما إنْ دخلت حتّى وجدته جالسًا في مقعده المفضّل بالقرب من الباب، بملابس الخروج، واضعًا ساقًا على ساق، يقلِّب صفحات كتابٍ كعادته.

ما إنْ رآني حتّى ابتسم ابتسامة رقيقة، ومدّ يده لي بالكتاب.

أخذتُه من يده وأنا مرتبكة، ولا أفهم شيئًا، فعاجلني بقوله:

– رواية ماجدولين، مِن أجمل ما ترجمه المنفلوطي من الأدب العالمي، رواية حبّ راقية، أثقُ أنّها ستعجبك.

عجزتُ عن النّطق من هول المفاجأة، وبذلتُ مجهودًا خرافيًّا في كتمان دموعي، أطرقتُ بسرعة لأخفي عينيَّ، اختفيت في حجرتي ومعي الكتاب، وقد أدركتُ أنّني أعيش بالفعل روايةَ حبّ حقيقية.. لم أحْسِن قراءتها.

أذنٌ جائعة

السّاعةُ السابعة والتّسعين بعد المائة بتوقيتِ الوداع، السّاعة صفرٌ بتوقيت طريقٍ مختلف قرّرت أن تسلكَه وحيدًا، العقربُ يرتدي بزّة عسكريّةً، ويدقّ الحائطَ في صرامةٍ مُعلنًا الحربَ على الحياة.

جزيّئات الأكسجين ارتمتْ قعيدة في أركان الوجود، عاجزةً عن التحرك ناحيةَ رئتي، تُراها حزينة هي الأخرى؟

حين تودّع، هذا يعني أنّ ثمّة صوتًا في عالمك سوف يسكتُ إلى الأبد، كمعزوفةٍ موسيقيّة تعشقها، فقدَتْ فجأةً وترًا، قد يكون أهمّ أوتارها.

ربّما تستمرّ المعزوفة، لكنّ الوترَ النّاقص، سيترك مكانه باردًا جدًّا، فارغًا جدًّا، بين حرارة العزف الذي ملأ وجودك.

حين تودّع، هذا يعني أنّ ثمّة ابتسامةً لها بصمةٌ خاصّة ستختفي بين ابتساماتِ عالمك، وأنّ حنينًا يَشبع كلّ حين، سيغدو جائعًا إلى ما لا نهاية.

وحيدٌ جدًّا، سيكون ذاك شعورك حين تمدّ يدك إلى مكانه الفارغ، فتعود باردة، تدورُ أفكارك في رأسك في دائرةٍ مُفرغة، وتدور، وتدور، وتدور، حتّى تذوب في النّهاية كأنْ لم يكن لها معنى أبدًا، كمقاتل ظلّ يضرب الهواءَ بسيفه بلا انقطاع، حتّى كلّ ذراعه، فسقط سيفه، بلا معركة، ولا انتصار، ولا هزيمة، مجرّد استنزاف ذاتي لا إرادي للحياة.

حملتُ حقيبتي على كتفي، ارتديتُ نظّارتي الطبية، واتّجهت إلى الباب، ألقيتُ نظرةً أخيرة على مظهري الفظيع في المرآة.

لا أعلمُ لماذا لم أهتمّ لشَعْراتي المتناثرة الواقفة كما لو أنّ مسًّا كهربيًّا قد أصابها، ولا لماذا لم أنزعجْ للهالة السّوداء التي أحاطت جفني المتدلي في انكسار.

أغلقتُ الباب ورائي بهدوء، ومضيتُ في طريقي، لا أحاول أنْ أدّعي أنني بخير، وكمْ من مرّة ادّعيت فيها ذلك.

كان الزحامُ شديدًا كالعادة، وأبواق السّيارات تتنافس بإصرارٍ عجيب في إنتاجِ تلوّث سمعي، الإنتاجُ الوحيد الذي يفيض عن الاحتمال، لكني-صدقًا-لَم أشعرْ بالضيق المعتاد تجاهه، ربّما أعصابي قد استهلكت بالفعل كلّ ما تبقّى لديها من القدرةِ على الشّعور بالألم، فلم يعدْ أيٌّ مما يجري في ذلك العالم من جنونٍ قادرًا على استفزاز نهاياتي العصبية.

وصلتُ مكتبي متأخّرة، تجاهلتُ نظرات الدّهشة والفضول في عيون الجميع، جلستُ إلى مكتبي ووضعتُ حقيبتي، أسندت رأسي إلى كفّي، ونظرت إلى شاشةِ الحاسوب في بلاهة، لا أعرف كم مرّ من الوقت وأنا أتأمّل بدقّة في اللاشيء الظّاهر على الشاشة، حين اندفع في أذني صاروخٌ أرضيّ يصرخ باسمي غاضبًا.

ورغمَ المفاجأة، ورغمَ نبرة الصّوت المخيفة، حرّكت رأسي ببطء وببلادة تجاهَ رأس المدير، وهبطتْ عيناي لتتأمّل شاربه الكثّ، لاحظتُ لأوّل مرّة

أنّ حجم شاربه ضخمٌ جدًّا، وغيرُ مناسب بالمرّة لحجم أنفه الدقيق وشفتيْه الرّفيعتين كخطّين باهتين. لكنْ يبدو أنّ الشارب الكثّ جزءٌ ضروريّ تواجدُه ليكمل مظهر مديرٍ حازم ومخيفٍ أحيانًا.

أفقتُ من خواطري على طرقةٍ قويّة على سطح مكتبي، أعقبها صراخٌ حادّ حتّى أشفقت على عروقِه النّافرة في رقبته التي بدت موشكة على الانفجار، ثمّ طالبني بالذّهاب لمكتبه، واختفى من أمامي كعاصفة.

تحرّكتُ ببطء كإنسانٍ آليّ أصابه الملل، دلفتُ إلى حجرته عاجزة عن رسم أيّ تعبير ذي معنى على وجهي، وقفتُ صامتة، فألقى في وجهي بكومةٍ من اللّوم والتّقريع والألفاظ السخيفة.

يبدو أنّ ثمّة انفصالٍ بين العقل والشّعور قد حدث لديّ، فكلماته لا تعني لي شيئًا بالمرّة، ماذا دهاني؟ حدّثت نفسي.

توقّف المدير فجأةً عن الصّراخ، يبدو أنّه لاحظ أنْ لا ردّ فعلٍ يجده لديّ بالمرّة، فقد بدوتُ وكأنني لا أسمعُه على الإطلاق. طرقَ طرقةً غاضبة بقبضتِه على مكتبه، وأشار بيده في اتّجاه الباب.

استدرتُ ببطء، وخرجت من الحجرةِ قبل أن أتسبّب له في الإصابة بجلطة دماغيّة.

مرّ اليوم ولم أؤدّ أيّ عمل، بخلاف تعمّقي الشّديد في مراقبة الدوائر التي تتقاطعُ بسرعة على شاشة الحاسوب ثمّ تختفي وتظهر من جديد.

وفي طريقي للبيت حاولتُ أن أرتّب أفكاري، وأن أجيب على سؤال "وبعد؟".

انتبهتُ فجأة أنّي وصلت لمنزلي، يا لهما من قدمين ذكيّين، يعرفان طريقَهما بلا مساعدة.

دخلتُ إلى حجرتي وارتميتُ على الفراش، كانت فكرةٌ واحدة تلحّ على عقلي... الهروب، نعم.. لا بدّ من الهروب.

بدّلت ملابسي بسرعة، وعقصْتُ شعْري المتناثر للوراء، حزمت حقيبتي وألقيتُ نفسي في سيارتي الصّغيرة التي طالما كانت لنا عالمًا فسيحًا. أزحتُ جانبًا كومةً من كتبِ الفلسفة التي يعشقها، وطالما قضينا السّاعاتِ نتناقش فيها برفقٍ أوْ بحدّة، برضا أو غضب، باتّفاق أو اختلاف، أيًّا كانت مشاعرنا في كلّ مرّة، لكنّنا كنّا نتحدّث سويًّا لساعاتٍ وساعات، وأبدًا لا نملّ الحديث.

أخرجتُ من مذياع السّيارة أسطوانةَ كاظم السّاهر، التي طالما أرخى جفونه منتشيًا حين يسمعه، يقول: "وبيني وبينك رعد وبرق ونار"، فيمدّ يدَه ليتحسّس أطراف أصابعي ويطمئنّ أنني بجواره.

وضعتُ مكانها أسطوانةً لشعبان عبد الرحيم كنتُ قد اشتريتها على سبيل المزاح، ورحتُ أردّد معه: "هبطّل السّجاير وأكون إنسان جديد".

حاولتُ أن أنتزعَ من رأسي كلّ ذكرياتي، ومن عيني صورته.

ودارتْ عيناي في كلّ الوجوه واللّافتات، وحتّى أرقام لوحات السيارات، رحتُ ألقي في عينيّ بنَهَم كلّ الصور المزدحمة المتنافرة، فقط كي لا أدع مكانًا فيهما لصورته.

لكنْ صورتُه أصرّت على مطاردتي وإزاحة كلّ الصور، علا صوته في أذني صائحًا بكلماتٍ غير ذاتِ معنى، وكأنّ صوتَه في ذاتِه أصبحَ هدفًا

تتلمّسه أذني الجائعة إليه، في حالةٍ من الفصل الغريب بين الصوتِ والكلمات والمعنى!

لحظاتُ لقائنا منطق يختلّ، وخطوط مفقودة، وميزان مكسور، كلّ المعاني والرّؤى تتبدّل، حتّى قاموسي، كان يتبرأ من مُفرداتٍ كثيرة يُفرّغها وجودُه من معانيها!

لحظاتُ لقائنا كانت تُصيِّر الصّمت لغة، ووقْعَ الأنفاس لغة، ولفتة الأهدابِ لغة، وحرارةَ اليدين لغة، تغنينا عن كلّ الكلمات! فقط، معه.

عندما كان يسألني "هل تحبّينني؟! إنّه على يقين أنّي أحبّه! لكنّه يشتاق، يحنّ إلى رجفةِ جسده، وسكرةِ روحه، حين تأخذه بعيدًا إلى حيث الحبُّ هو السيد، الآمرُ النّاهي.

لا قانونَ إلّا قانونه! ولا منطقَ إلّا لذّته!

فقط، حين أهمسُ بها، وأعود أردّدها بنصف وعي في صدق يكسره، ينسى فيه اسمه، وينمحي تاريخه، ولا يبقى له إلّا كلماتي عنوانًا واسمًا.

كنتُ أهوى مراقبةَ وجهه وأنفاسِه الهادئة، وأظلّ أستمع إلى إيقاعِها الخافت، وكأنّي عثرت لتوّي على لحنِ الوجود. يااااه، لحن الوجود!

وجدتُ نفسي أمامَ بوّابة النادي، ذاك الذي لم تطئه قدماي منذ سنوات، وجدتُها فكرة موفّقة للغاية.

ركنتُ السّيارة بحرفيّة طالما غبطني عليها، وانطلقتُ إلى داخل النادي كطفلةٍ متلهّفة للّعب.

ومنذُ خطواتي الأولى، وأنا أعلمُ طريقي جيدًا، لا للجلوس على النّيل وحيدة، فقط الزّحام يناسبني.

فتّشت بعيني لاهفة، وابْتَلعتني بسرعةٍ حفلةُ عيدِ ميلاد لزميلةٍ قديمة من أيّام المدرسة، أهْداني إيّاها القدرُ ليذوبَ صخبُ روحي في ضجيج الموسيقى.

وعلى إحدى الطّاولات، دسستُ نفسي بين مجموعةٍ من الفتيات والشّباب، تلك النّوعية التي حرصتُ- لسنواتٍ طويلة- أن أتجنّب وجود أيّ علاقة معها.. لكنْ يبدو أنّ الوقت قد حانَ لأغيّر كثيرًا من توجّهاتي في الحياة.

اقتحمتُ- فجأة- حوارهم متقمّصة دورَ الفتاة الثّرثارة، فقلت بابتسامة واسعةٍ حاولت ألّا تبدو مصطنعة: ما رأيُكم أنْ نشغّل موسيقى التانجو ونرقص؟

هزّوا رؤوسهم بتعجّب كأنّهم لا يصدّقون ما يرونه ويسمعونه منّي.

لم أعْطِهم الفرصةَ لإفساد خطّتي والانحراف إلى حواراتٍ من نوعيّة: "ما بك؟ وما الذي غيّرك؟"، فقمتُ مسرعةً لرئيس الفرقة الموسيقية، وهمستُ في أذنِه بالمطلوب، وفورًا صدحتْ موسيقى التانجو في المكان.

اختطفتُ كأسًا من صينية مارّة بجواري، مقلّدة بطلات الأفلام القديمة، وغرقتُ في موْجة رقص.

لم يكنْ جسدي هو الرّاقص الحقيقي، بل روحي كانت ترقصُ رقصًا جنونيًّا، كنت أدورُ بسرعة مُرتدية فستانًا أسبانيًّا قديمًا، أصعد درجات السّماء بسرعة وأنا ألوّح بذيل فستاني المدلّى إلى الأرض، أدقّ بكعبي العالي فتتردّد دقّاته في جنبات الكون، تحرّك العصافير أجنحتها في أعشاشِها طربًا، وترفع الزّهور رؤوسَها المنكّسة في كسلٍ لترمقني بدهشة.

كانت ليلةً طويلة، ذهبتُ فيها في غيبوبةٍ طويلة من الرّقص والثرثرة، أو قلْ أفقتُ فيها على العالم، كأنّما ولدتُ إلى عالم جديد.

وفي نهاية اللّيل، أخيرًا اقْتنعت.

اقْتنعت أنّ الموت رحيمٌ جدًّا، ظلامُ القبر وهدوؤه، لا.. ليس موحشًا أبدًا.

هو أفضلُ من تلك الثّرثرة اللّعينة التي ملأتُ بها أذني الليلة، دون أنْ تشبعَ أذني الجائعة.

ظلمةُ القبر أفضلُ كثيرًا من شمسِ هذا العالم التي تحرق أكثر مما تدفئ.

وحْدي في القبر، لنْ أكون وحيدة، حيث لنْ أكون هناك لأبحث عنك، إنّما جسدي البائس سيرقدُ في سلام، بينما تمرحُ روحي طليقةً في السماء، أراقبُ قبري من بعيد، بعيد جدًّا، وأضحكُ على كلّ لحظة قضيتها سجينةً في جسدي، سجينة في هذا العالم الكريه.

في ظلمةِ القبر، حقًّا، هذا أفضلُ جدًّا.

وارتميتُ في الفراشِ لا أرجو الاستيقاظ.

اخترقَ أوّلُ شعاعٍ للشّمس أحلامي السّوداء، فتحسّستُ عظامي المكسرة، وقمتُ بصعوبةٍ أتطلّع في المرآة.

ذاك الشّرخ، هل هو في مرآتي، أمْ في عينيَّ؟!

أعرفُ جيدًا مذاقَ الحزن، لكنّني للمرّة الأولى أعرف مذاقَ الانكسار! للمرّة الأولى أعجزُ عن الوقوف، للمرّة الأولى أسقط على ركبتيَّ، وأبكي، وأبكي، وأبكي، دون أنْ تسقط من عيني دمعةٌ واحدة.



على المحكّ

كنتُ مُسترخيًا في مقْعدي المخمليّ الوثير بمكتبي، في ذلك الوقتِ الباكر من الصّباح، أحتسي فنجانًا ساخنًا من الشّاي بالنّعناع، وأمدّ ناظريَّ عبر زجاجِ النّافذة المتّسخ، لأراقب العالم من الطّابق الأربعين.

حاولتُ مرارًا أنْ أتجاهل تلك البقعَ على الزّجاج، وأراقب العالم بعيدًا عنها، لكنّها أبتْ إلّا أنْ تلتصق به، وتلوّن كلّ مشاهده، حتى يأست، فتوقّفت عن تحريك رأسي، واقتنعتُ أنّه لا يمكن فصلُها عن العالم قبل مجيء ذلك المسئول عن التنظيف.

بينما أنا سارحٌ في البقع، اقتحمَ زميلي حجرةَ المكتبِ فجأةً صارخًا:

- سعادةُ المدير يطلبك فورًا.

تبخّرت من عقلي البقعُ والعالم وفنجانُ الشّاي، وارتعدتْ فرائصي وأنا أضعُ- في ثوانٍ معدودة- احتمالاتٍ كثيرةً لذلك الاستدعاء.

ربّما يريدني بشأنِ التّقريرِ الذي سلَّمتُه متأخّرًا عن موعدِه بيومين.

تصوّرتُ أنَّ الأمرَ مرَّ بسلام، دُون أنْ يلحظَه أحد! إذا صحَّ ذلك، فربما يخصمُ لي بضعةَ أيام، وحينها لن أكون قادرًا على سدادِ قسطِ الجمعيةِ التي اشتركتُ فيها من أجلِ سدادِ ثمنِ الثلاجةِ الجديدة.

إنّها زوجتي الطّماعة، هي التي ورَّطتني في ذلك، لم نكن بحاجةٍ إلى ثلاجةٍ أبدًا، تعوَّدنا الحياةِ بدونها سنينَ طويلة، لماذا أصبحتْ فجأةً ضرورية؟!

لا.. لا، لا أظنّ الأمرَ كذلك، بل الأغلبُ أنَّه يطلبني ليرسلَني بالمستنداتِ المطلوبةِ للمناقصةِ الجديدةِ، إلى فرعِ الشّركة بالإسكندرية كعادته، يااااه، ستكون فرصةً رائعةً حقًّا لأستمتعَ بهواءِ البحرِ المنعشِ مع زوجتي المسكينةِ التي نادرًا ما تحظى بفرصةٍ مماثلة، ومع ذلك تحتملُ ظروفي دائمًا بلا شكوى، يا لها من امرأةٍ قَنوعة.

آااه، الآن تذكّرتُ، بالتّأكيد هو يريدني لكي يتأكّدَ مِن التزامي بتطبيقِ التّعليماتِ الجديدةِ بخصوصِ كتابةِ التقارير، فأنا أفهمُه جيدًا، ذلك الرجل المزدحم رأسُه بالوساوس، لا يثقُ أبدًا في انضباطِ العملِ إلّا حين يراجعُه بنفسه!

لكنّي تركتُ التّقاريرَ كلّها في البيت، كانت نصيحةَ زوجتي الحمقاء، هي التي أصرّتْ على تركِها بالمنزل، بحجّةِ أنّها تخشى على ضياعِها منّي، لو أنّني حملتُها معي كلّ يومٍ، مِن وإلى المكتب.

لا أعرفُ حقًّا لماذا تزوّجتُ تلك المرأةَ الثّرثارة، تُدلي بدلوِها دائمًا، حتى في عملي!

لا.. لا، بل فهمتُ الآن، لا بدّ أنَّه يُريدني ليبشّرَني بالموافقةِ على السّلفةِ التي طلبتُها من أجلِ زواجِ ابنتي، نعم.. هوَ بالتّأكيد ذا، كان اقتراحًا موفّقًا من زوجتي، في العادةِ لا أُحسن التصرّفَ إذا لم تُوجهني هي، هي العقلُ، وأنا الـ....

– المديرُ بانتظاركَ يا رجل، وأنتَ شاردٌ تبتسم كالأبله!

نفضتُ عن رأسي أفكاري المبَعْثرة، وهرولتُ إلى حجرةِ البيك المدير، مُردِّدًا في نفسي بغضب العاجز:

– لنْ يكون أسوأَ مما كان.

تلكّأتُ لحظاتٍ أمامَ بابِ البيك المدير، عدّلتُ ربطةَ عنقي، وبدلتي المهلهلة، وصفّفتُ برفقٍ شديدٍ شعراتٍ قليلةً باقيةً في مؤخّرةِ رأسي الكبير، طرقتُ البابَ بحذر، ثمّ دلفتُ إلى الدّاخل، بابتسامةٍ مفتعلةٍ مترقبة.

قابلني المديرُ– على غير عادته– بابتسامةٍ واسعة.

– اجلس.

تردّدتُ قليلًا، ثمّ جلستُ وبعقْلي مهرجانٌ من الأسئلة، لم يعطني أيةَ فرصةٍ لمزيدٍ من الحيرة، بادرني بتسليمي مفاتيحَ خزانةِ الشركة، وإعلانِ قرارهِ المفاجئ بتوليتي مسئوليتَها.

– يبْدو أنّ إخلاصي في عملي عشرين عامًا– بشرف– قد أثمر أخيرًا.

حدَّثتُ نفسي بزهوٍ وأنا أسيرُ في الممرِّ منتفخَ الأوداج، أودُّ أنْ أخبرَ كلَّ مارٍّ أنّي أنا الشّريف، بشهادة البيك المدير.

وقفتُ أمام خزانةِ الشّركةِ المفتوحةِ في ذلك اليوم، ورحتُ أُقلِّبُ شاردًا أوراقَ البنكنوت التي امتلأتْ بها عنْ آخرها، تراودني أفكارٌ كثيرة، خجلتُ أن أفصحَ عنها لزوجتي حين جلسْنا نتسامر كعادتنا بعد العشاء.

وبمرورِ الأيام، تزايدتْ ثقةُ المديرِ بي، إلى حدّ أنْ صار لا يراجع ورائي أيَّ شيء، هي ما يسمّونها "الثّقة العمياء"،لم أكنْ أعلم أنها سيئةٌ قَبْلًا، الآن أدركتُ أنَّ عماها كثيرًا ما يؤدّي إلى كارثة.

وفي ذلك اليوم، فتحتُ خزانةَ الشّركة، تتنازعني خواطرُ شتى، فطيلة حياتي كنتُ أدَّعي الشرف أمامَ نفسي، وأمام الآخرين، كم يكون ذلك سهلًا عندما لا تكون بين يديك خزانةٌ مكتظّةٌ بالمال، وخلفك جبالٌ من الالتزاماتِ والدّيون.

في الحقيقة، لم أفهمْ ذلك وقتها، عرفتُ متأخّرًا جدًّا أنّ الحديثَ عن المبادئ ضربٌ من السّذاجة، حينما تكون الخطيئةُ- واقعيًّا- غيرَ متاحة، وأنَّ بعض الفقراء شرفاء- فقط- لأنَّ فرصةً للحرامِ لم تُواتهم.

ها أنا اليوم مكبَّلٌ بالدّيون، محمَّلٌ بالهموم، تُحاصرني صورةُ ابنتي العروس، التي لم أشترِ لها إلّا أقلَّ القليل، وزوجتي المسكينة، التي لم تشترِ ثوبًا جديدًا منذ فترةٍ طويلة.

ناهيك عنْ بيتنا الذي انْهار سقفُ حمَّامه القديم، وصاحبُ البيت الذي يلدَغُني بلسانه كلّما دلفتُ إلى المنزل، مُذكّرًا إيّاي بالإيجارِ المتأخّر، ومازلنا نقنعُ أنفسنا أنَّ الأمورَ على ما يُرام!

ولأوّل مرّة، أجدُ نفسي على محكّ حقيقي، والاختيارُ حرٌّ للغاية.

مددتُ يدي إلى الخزانةِ عدّةَ مرّات، وفي كلّ مرّةٍ أُعيد ما أخذته! فالتّنازلُ عن المبادئ صعبٌ، وأنا أدَّعي الشرف.

ارتميتُ على الكرسي، أحكُّ جبهتي وشعْري في هيستيريا، تحاصرني صورٌ متقابلة، ويجلدني صوتُ الضمير.

وبعدَ وقتٍ ثقيلٍ من المقاومة، انْهرتُ أمامَ احتياجي وبساطةِ المهمّة، بفضل الثّقةِ العمياءِ الملعونة.

حشوتُ جيوبَ بنطالي ومعطفي وقميصي بأكبرَ قدرٍ ممكنٍ من الأوراق النّقدية، أغلقتُ الخزانة، وعدتُ إلى بيتي، مُحمَّلًا بالحلّ السحري لكلّ مشاكلنا.

كان شعورًا غريبًا، كأنّي ضبطتُ عقلي وضميري على وضع التّجميد، نعم.. مجمّدان هما حاليًا حتّى يستطيع أن يحيا الجسد!

طيلةَ الطريق، وحاجتي للمال تُلَوِّح بيديها كفزَّاعة، تهشّ عن عقلي وضميري أيَّ خاطرٍ يُخشى أن يوقظَهما من حالةِ التجميد.

دخلتُ البيتَ كإنسانٍ آلي، أخرجتُ رزمَ المال من جيوبي ووضعتُها على الخِوان القديم، دون كلمةٍ واحدة.

ابتسمتْ زوجتي بارتِباك، تبادلتْ مع ابنتي نظرةً ذاتَ مغزى، ثمّ ضحكتا بانْتشاء.

لم تسألني إحداهما عن مصدرِ الأموال، فهما مُحتاجتان إليها، كما أنّه لا معنى للشّك في رجلٍ شريفٍ مثلي! وإلّا فأين الثّقة إذًا؟! تصوّرتُ أنهما هكذا فكّرا.

بعد أيام ثقيلةٍ جدًّا، قررتُ أنْ أعترف، ابتسمتْ زوجتي ببرود واضعةً ساقًا على الأخرى- على غير ما توقّعتُ- وقالت:

- إنّ الأغنياءَ حين يمنحون ثقتَهم للمُحتاجين فهم يحرّضونهم على الخطيئة، والمُحرّض كما ينصُّ القانون، هو شريكٌ في الجريمة، فلماذا يدفعوننا دفعًا، ثمّ يُسمّوننا لصوصًا؟!، ما نحن إلّا ضحايا ثقتهم وغبائهم.

في الحقيقة، اقتنعتُ جدًّا بتبريرها، يا لها من امرأةٍ ذكيّة، كم كنتُ بحاجةٍ للإفلات من تهديدِ ضميري المستمرّ بالخروجِ من حالة التجميد!

أقنعتني زوجتي أنْ لا داعي للوْم نفسي كثيرًا، فليتكفّل بذلك المجتمعُ إنِ اكتشف يومًا جريمتي! وحينها سوف أطالبُ شركائي فيها أنْ يتقاسموا معي العقاب؛ صاحبَ الشركة، وصاحبَ البيت، والجزارَ، والبقالَ، والحكومةَ! فكلُّهم شركائي، وأنا أكثرُهم شرفًا.

واليوم، وأنا أملأُ حقيبتي الدّبلوماسيةَ برزمِ الأوراقِ النقديةِ الخضراء، قابضًا بشفتي على أفخرِ أنواعِ السّيجارِ المستورد، يعلو وجهي ابتسامةٌ هادئة، أداعبُ من حينٍ لآخر خصلاتِ شَعْري المزروعة، أذكرُ جيدًا ذلك اليوم، هكذا هي التّنازلاتُ الأولى دائمًا، صعبة، بعدها تصيرُ الأمورُ على ما يرام.

أطفأتُ سيجاري متعجّلًا، وأنا أدسُّ في يدِ موظفِ الجمرك الشّابِ- الذي يبدو شريفًا للغاية- مبلغًا ضخمًا، راقبته وهو يقلِّبُ المالَ بين كفيه بذهول، عرفتُ بخبرتي الطّويلةِ أنّها تجربتُه الأولى، وعرفتُ أنّ فلسفتي انتقلتْ له فورًا، لكنّه في الحقيقةِ كان أقلّ منّي تردّدًا بدرجةٍ كبيرة، وأسرعَ قبولًا للتنازل، فلم يلبثْ أنْ أفسح لي الطريق، مُلقّبًا إيّاي بالبيك الكبير! ألم أقلْ لكم إنّني.. رجلٌ شريف؟!

على نارٍ هادئة

• ما أحوَجَني إلى صديق!

• نقطةٌ سوداءُ أنا على كوكبٍ مغطّى بالثّلوج، وحدي، أتحرَّك كآلة، لا شيء حولي ألبتّةَ، أنفُثُ مشاعريَ الحارة، فتتجمدُ في الهواء، ثمّ تسقطُ على الأرض لِتذوبَ بين الثلوج، أُطلقُ صرخاتِ خوفي، فترتطمُ بجدار وَحدتي، ثمّ ترتدّ إليَّ صفعة على وجهِ وجودي.

• مازلتُ خَرْساءَ في دنْيا العدم، وصوتي أجملُ الأصوات، ولِمَ أتكلّمُ؟ هل مِن أُذنٍ هُنا؟!

• ربّما ضجّةُ العالم هي سببُ صَمَمِه، أو ربّما العالَم يسمع وأنا التي أجهلُ لغتَه، ربما، ربما، ربما... المهمّ، أنّني في النهاية... وَحدي.

هكذا كنت أفكّر حين انتبهتُ على صوت صياحِه، يطالبني بفنجان القهوة.

مرَقَ أمامي- كعادته- يحمل أشياءَهُ التي أبغضُها كثيرًا، يُكْمِلُ ارتداءَ ملابسه أثناء الحديث في الهاتف وتناوُل شَطِيرَتِهِ المفضَّلَة.

حَمَلَ حقيبته، واختَطَفَ من يدي فِنجانه، سكبَهُ في جَوْفه دفعةً واحدة!

• أنتِ وقهوتي سرُّ طاقتي؛ بِدُونِكُما لا يستقيم يومي.

همسَ بها مُغَازِلًا.

طَبَعَ قُبلةً باردةً على جبيني، لَمْلَمَ حاجياته مُهروِلًا، وصَفَقَ البابَ.

تنهّدتُ تنهيدةً طويلةً، حمَّلتُها سخونةَ براكيني المُستتِرة خلفَ ابتسامتي الثّلجية كأيامي.

وفي المطبخ، وضعتُ قهوتي على النّار؛ نار هادئة، فكلّما مكثتِ القهوة أكثرَ، كان طعمُها أكثرَ غموضًا وسِحرًا، ولما قاربَتِ الفوَران، صببتُها في فنجانِها البارد، فمنحَتْهُ كثيرًا من دِفئها.

حملتُ فنجاني إلى الشُّرْفة، وجلستُ أستمتع بغزَل الشّمس الساخن لِخُصلات شعْري، وأبتسمُ للعصافير التي كانت تتهامسُ عنّي، وعن الحُبِّ، وشمسِ الصباح.

وكعادتي، أمسكتُ قلمي هاربةً إلى عالَمي.

لكنّني هذا الصباح، أعدتُ بناء كلّ المدائن الخَرِبَةِ، وزرعتُ حقولَ القمح اليابسة، ونثرتُ على جانبَيِ الطّريق زهورَ الياسمين.

أشعلتُ ثوْرَاتٍ أطاحتْ بالملوك ودهَسَت كلّ الفاسدين، احتضنتُ الأطفال المُشَرَّدينَ، ومسحْتُ على قلوبِ الثَّكَالَى فَبَرِأتْ جراحُهُم، ثمّ غرسْتُ الشمسَ في جَبِينِ الصُّبْحِ تَبْتَسِم.

• لكنّني، مازلتُ وحدي!

همستُ بها ووضعتُ قلمي... فانسابتْ من عيني حُمَمي البركانية، سقَطَتْ على أوراقي، فأحرقَتْ كلّ ما كتبتُهُ، وكلَّ ما عرَفتُهُ، وكلَّ ما أحسسْتُهُ يومًا ما.

كريشةٍ في مهبِّ الريحِ صرتُ، أو أخَفَّ، كدمعةٍ في بحورِ الصمت سقطتُ، كحَجَرٍ.

أطحتُ بأوراقي، بعيدًا في مهبّ الريح؛ لِتَتِيهَ كما تاهتْ مِنِّي ملامحُ الطّريق، بين تفاصيلَ كثيرة أخذَتْني في ثناياها.

• ما أحوجني إلى صديق!

فقط، ضغطةٌ صادقةٌ على كفِّي تَثْبُتُ بها أعمدةُ نفسي الآيِلَةِ للسقوط، ضغطة تَثْبُتُ بها الرّوحُ المُخَلْخَلَةُ من جسدي، ضغطة تَثْبُتُ بها قدمي على أرضٍ تُزلزلني.

حاولْتُ أنْ أزِيحَ عن خاطري الفكرةَ، وذكرياتِ الليلة الماضية، وقُبلةَ الصّباح.

تقلَّص الكونُ فجأةً، فصار كُرَة زجاجية تحاصرني، ارتشفتُ ببُطْءٍ الرَّشْفَةَ الأخيرة من قهوتي المُرَّة، فَوَحْدَه يُفضِّلُها بِسُكَّر.



القطار

مرَّت سنونُها وحيدة، ولا تزال تحلم أنّها ستَلقَى فارسَها مصادفةً في حقلِ الزّهور.

سيفاجئها بجسدِه الأولمبي وابتسامتِه الغامضة، مرتديًا قميصًا أبيضَ ذا خطوطٍ لامعةٍ دقيقة، وصديريًّا أسود، وقبعةً سوداء تستدير حافتُها للأعلى.

ثمّ يطلق صفيرًا طويلًا حين تلتفتُ بجسدها فجأة، فيدور ثوبُها الوردي المزركش في الهواء كمروحةٍ كبيرة.

ستلمحُه يرمقها بنظراته المُربكة، وهي تزيحُ خُصلاتها النّافرة بعيدًا عن عينيْها الجميلتين، فتضطرّ إلى إرخاء قبّعتها الكبيرة ذات الشريطة الحمراء، هاربة من حصارِ نظراته.

ستمنحه وردةً ممّا جمعت، ثمّ تلملمُ أغراضها بسرعة، وتقفز على فرسها راحلة، فيقفز هو الآخر على فرسه، و...

انتشلها من خيالها صوتٌ غليظ أشبه بالحشرجة:

- إحم، إحم...

التفتتْ مذعورة، فوجدتْ كرشًا سمينًا يملأُ نصفَ مجال رؤيتها، يعلوه رأسٌ تحتلُّهُ ابتسامة بلهاء!

- صباح الخير آنسة عبير.

ردّت متلعثمة:

- صباحُ النور أستاذ سمير.

- تأخّرتُ قليلًا، هل تسمحين لي بالجلوس؟

- بالطّبع، تفضّل.

قالتها وقلبُها يريد شيئًا آخر.

- يا لها من رحلة طويلة مُرهقة في طقس سيّئ للغاية، تلك التي اضطررتُ إليها للقدوم من مدينتي.

قالها وهو يضعُ حقيبته، ويُفلتُ أزرارَ سترته ذات التّصميم الأثري.

- آه، أنا آسفة.

ردّت بارتباك، وودّت لو أنّها تسكُب على رأسِه قهوة ساخنة وترحل بسلام.

تمالكتْ نفسَها خوفًا من فوْتِ القطار، وأقنعتْ عقلَها بسرعةٍ ألّا بأسَ بإعطائه فرصة.

- كم عمرك بالتّحديد آنسة عبير؟

- اثنان وثلاثون.

- تبدين أصغر كثيرًا، إنّها قدرة مستحضرات التجميل السحرية على تصغير النّساء.

وأطلق ضحكةً قصيرة تُشبه صريرَ باب لم تُشحم مفصّلاته منذ سنوات.

ابتسمتْ محاولة أنْ تُجامله، دون أنْ تستوعب تمامًا ما يحدث.

– وما سببُ تأخّرك في الزّواج إلى يومنا هذا؟

انتابتْها رغبةٌ قويّة في قتل جارتها السّيدة كوثر التي تسببتْ في ذلك اللقاء، علا في أذنها هديرُ القطار، فابتسمتْ ولم ترد.

– وما هي اهتماماتُك يا آنسة عبير؟ أعرفها بالتّأكيد، ومَن مِنا لا يعرف اهتمامات النّساء؟

وأطلق ضحكةً لزجة طويلة.

انفرجتْ شفتاها لتتكلّم، فاستبقها بقوله:

– بالتّأكيد تعشقين الطّبخ، وتتفنّنين في صنع طواجن اللحم والخضر، وهذا شيء طيّب بالتّأكيد، فالطّريقُ إلى قلب الرجل معدته، كما يقولون.

– ولكن...

– أنا أفهمك جيدًا يا آنسة عبير، أنتِ تحبّين أيضًا مشاهدة المسلسلات التّركية، وهذا لن يزعجني إطلاقًا، على العكس، فأنا لا أحبّ المرأة التي تحاصر الرجل كلّ الوقت بثرثرتها الجوفاء، وأعتقد أنَّ مشاهدة تلك المسلسلات التّافهة ستكون فرصةً جيدة بالنسبة لي للاختلاء بنفسي قليلًا، وممارسة هواياتي الخاصّة بعيدًا عن رقابة امرأة.

وأطلق ضحكتَه الغريبة.

ظهرتْ على وجهها أماراتُ الغضب، واحمرّت وجنتاها الممتلئتان.

– لا داعي للغضب من حديثي عنْ هواياتي، فمازال أمامنا وقت طويل قبلَ الزّواج للتّفاهم بخصوص تلك الأمور، وتبادل وجهات النظر، فأنا رجلٌ ديمقراطيّ جدًّا، أحترم آراءَ زوجتي في كلّ شيء، إلّا فيما تخالفني فيه بالطّبع.

وأطلق ضحكته.

– أستاذ سمير...

قاطعها قائلًا:

– لا داعي للقب أستاذ، ادْعيني سمير فقط، أو قولي "سمورة" إنْ أردتِ، هكذا كانت تناديني أمّي رحمها الله، توفّيت قبل خمس سنوات، دون أنْ تراني في بيت الزوجية.

ترقرقتْ في عينيه الدّموع، فردّت بخجل:

– رحمها الله.

– أمّا عن الشبكة والمهر فلا أرى داعيًا لهما، فهي عاداتٌ قديمة بالية، وأنتِ بالطبع تشترين رَجُلًا كما يقولون.

– أظنّ...

– لا تظنّي أيّ شيء، فمعي ستتيقّنين من كلّ شيء، أنا واليقين، أنا والثّقة، أنا والدّقة المتناهية.

وأطلق ضحكته، فصاحت:

– أستاذ سمير، أنتَ لم تعطني فرصةً لقول جملة واحدة.

حضرَ النّادل.

– بماذا تأمرُ سيدي؟

– لا شيء، فأنا أتبع حمية غذائية.

– لكنّ الجلوس هنا سيّدي يستدعي طلبَ مشروب على الأقل.

– أتعني إذًا أنّ عليَّ أنْ أُفسد حميتي من أجل قوانين المكان السخيفة؟

كتمتْ ضحكاتها، حين نظرَ له النادل باندهاش، وعجز عن الرد.

أخذتْ نفَسًا طويلًا، نهضتْ من مقعدها، وودَّعتْه، غيرَ عابئةٍ بالقطارِ المزعوم.

– آنسة عبير انتظري، آنسة عبير...

ناداها وهو يحاول اللّحاق بها.

مضتْ دون أنْ تلتفت، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة.

عادتْ بها أحلامُها سريعًا إلى حقل الزهور، على ظهر فرسها.

عدّلتْ قبعتها في كبرياء، ألقتْ على فارسها نظرةَ دلال، جذبتْ لجام فرسِها وانطلقتْ، توشوشه مِن حين لآخر:

– تمهّل يا حلو.

ثرثرة

أطالتِ النّظرَ إلى المرآةِ على ضوء مصباحِها الزيتيِّ الباهت، كان سطحُ المرآة القديمُ يعكس صورةَ امرأةٍ لا تُشبهها..

هل المرآةُ القديمةُ تكذب؟! أم أنَّ الانتظارَ طال بي؟

تساءلتْ وهي تُمرِّر أناملَها على خدِّها الذابل

أمسكتْ طرفَ جَديلتِها السّوداء الثقيلة بأطراف أصابعِها؛ لتنقضَها ببطء، خالط شبحُه صورتَها في المرآة فجأةً، كما لو كان يذوبُ في أجزائها، ويتنفَّس برئتَيْها، كتمتْ أنفاسها اللّاهثة، وجحظتْ عيناها الذَّابلتان شوقًا إليه، حاولتْ أنْ تنهل من عينَيْه البعيدتين، وهي تعلَمُ أنه السّراب، حاولت أن تطبق أجزاءها في المرآة على شبحه المراوغ، مدت ذراعيها بلهفة.

انتشلَها من المرآة همسُ الصّغير

أمّي، جائعٌ يا أمّي.

اهتزّت جُدرانُ صبرها، حملتْه برفق على كتفِها، وأخذت تدورُ به في حجرتها الضيِّقة؛ تمسح على ظهره الهزيل وتغنّي، لعلَّه ينسى وينام، غنت له حتّى أسدلت جفونه على عينيه، وغاب عن عالمِه القاسي.

وضعته برِفْق، شمَّرتْ عن ساقيها العاجيَّتَيْنِ، فاعتلتِ الأريكةَ الخشبيَّة المتهالكة، وألقتْ بعينَيْها بين قضبانِ نافذتها الصغيرة.

كانت الأجسادُ المُنْهكةُ تسعى في كلّ اتّجاه، عبْرَ حارتِها التي تنبعث منها رائحةُ الموت أكثرَ مما تنبعثُ رائحة الحياة، الوجوه السّمراء، العيون المهزومة، الأيادي الجافّة، تسبح معها ثرثرة جوفاء في فضاء خوفِها، تمتزج بصدى بكاء طفلِها الذي يتردّد في سماء عالمها الفارغ، حتّى علا فجأةً صوتُ تلفازِ الجيران، فسمعتْ ثرثرةً عن أشياء تُدْعَى الفكر، الإبداع، الثّورة، الاختيار الحرّ؛ بينما تعالَتْ أصواتُ المتحاورين، وتشنَّجَ كلّ منهم في الحديث واتِّهام الآخر.

مطَّت شفتَيْها، وهزَّت رأسَها في بلاهة، أدارت عينَيْها بين جدران سجنِها الصّغير؛ بحثًا عن معاني تلك التُّرَّهات، لم ترَ سوى شقوقًا قديمةً احتلَّتها العناكبُ، وجدرانًا تستغيثُ.

انتهت بعينيها إلى مِرآتها القديمة ثانيةً، هالَها مظهرُ أمواج شعرِها الثائرة، لقد أحْيَتْ كلّ ما وَأدتْه فيها منذُ سنين، لَمْلَمتْ شعرها بارتباكٍ، وأعادتْ خنقَه بسرعةٍ في جدائلِه الضيِّقة، غطَّت رأسها بطرحتها السّوداء، وارتمتْ منهكةً على الأرض بجوار الصّغير، احتضنَتْه خائفة، وضعَتِ الوسادة فوقَ رأسها هربًا من إزعاج ثرثرة التِّلفاز.

غرقتْ في النّوم بسرعةٍ، فباتَتْ تَحلُمُ أنّها تسبح في بحرٍ من العسل، على شاطئِه مئات الأرغفةِ الساخنة.

المصير

لا أعرف الموتَ أنا، عشتُ حيواتٍ كثيرة بعمر الكون.

كنتُ سحابة، سحابة صغيرة جدًّا، ناصعة البياض، فضيّة الحواف، تسبح في هدوء، حتّى أعادتْ تشكيلها أصابعُ الرّيح الذهبية.

جعلتني شراعًا عظيمًا، فموجة متكسّرة على شواطئ الخيبة، فوجهٌ مهزوم مغمض العينين!

جعلتني جبلًا هائلًا، فورقة بيضاء صغيرة مخطوطة بحبر سرّي، لا تقرأه إلّا عيون العاشقين!

ثمّ عيونًا كبيرة ترى العالمَ من ثقب المفتاح، في غفلة من السّجان!

وصرتُ جناحًا أبيض، يغطّي ظلُّه سهلًا بأكمله، فتاجًا من زجاج، على رأسِ أسير، فوليدًا ينطق الحكمة، ولا يعرف كيف يستقيم ظهره!

فكلمة مشتاقة أن تنطقها شفاه عاشقة، فعلامة تعجّب كبيرة، فحنينًا إلى حنين..

وطفقتُ أمدُّ خطاي كطفلٍ لتوّه تعلّم المسير، قطرة تائهة في بحرٍ كبير، أتعثّر وأضحك، وتتبعثر ضحكاتي الصّغيرة في سمائي الكبيرة.

وذاتَ صباحٍ صيفيّ حارّ، سقطتُ قطرات على سنبلة قمح ذهبية، فغرَتْ فاهها دهشةً، هزّتْ رأسَها المثقل، نفضتني بانتشاء، ثمّ ضحكتْ.

وجدتُ نفسي أتفتّت وتطيحُ أجزائي في الهواء، وتتيهُ جميعًا، لترتطم

بخيوط الشّمس العابثة وتتبخر.

بتّ روحًا شاردة، لا هي بقيتْ في جسدها، ولا هي صارت عدمًا.

أمضيتُ في حياتي البرزخيّة عمرًا لم أحسبه، حتّى تجمعت أجزائي مرّة أخرى عند المساء، على كتفِ سحابة جديدة مارقة، ضمتني بآليّة دون أدنى عاطفة، فاختلطتُ بذراتها مُطرقة صامتة،لم أسألها إلى أين تحملني، ولا وجدتُ فرصةً لأفكّر في ذاك المدعو "المصير"!

امتطى كياني الجديد ظهرُ ريح هائجة، ومضتْ بي السّحابة العمياء عمرًا

لم أحسبه، لا أفعل شيئًا سوى النّظر إلى العالم المجنون في الأسفل، أتأمّله بإشفاق يشوبه الكثيرُ من الخوف، وحدي أنا أستطيع أن أُلمَّ بأطراف الصّورة المترامية، تلك التي تراها كلّ عينٍ قريبة جزءًا تحسبه كُلًّا، ويا للحماقة.

وفوق البحر الأسود، ولدتُ من جديد، سقطتُ بلا إرادة، ربما حاولتُ أنْ أقاوم سقوطي للحظات، لكنني لم ألبثْ أن قلت لنفسي "حين يكون المرءُ بلا هويّة ولا انتماء ولاهدف، لا ضير إنْ بقي أو سقط، كلّها أوطان مؤقّتة، ولا يلبث أنْ يتيه ثانيةً مع المجهول".

صرتُ مع أمثالي من التّائهات موجةً عظيمة، علتْ، وعلت، وهي تستشيط غضبًا من دفع الريح، فقلبْنا مركبًا صغيرًا شاردًا، وطفتْ جثة الصّياد بعد صراع مستميت، اقتربتُ من وجهه البائس، وسِلْتُ عليه بحنان، أعتذرُ له أنّني قتلته، وأخبرته أنني لم أخترْ أبدًا ما فعلت.

لم تدمْ أحزاني طويلًا، فعند الفجر، تبخّرتُ من جديد، وعدتُ لأتيه في تلك السّماء اللعوب، التي لا تقتلني، ولا تحييني.

وسريعًا، اختطفتني سحابةٌ جديدة، ارتميت في أحضانها لاهثة، اعترفتُ لها بجريمتي، بكيتُ كثيرًا وقلت إنّي قطرات بيضاء، أسقطتني من فوْرها على خدّ أسيل، تلألأتُ دمعات ندمٍ كبيرة للحظات، صرختُ بلوعة، ثمّ سقطت.



لا يهمّ وسندوتش فلافل

منذُ سنوات، أصبحتِ الكلمةُ الأكثر تردّدًا في عقلي: "لا يهمّ"!

كلّ تلك المواقف التي كانتْ تثير غضبي أو حزني أو انفعالي، صارت لا شيء، لا شيء بالمرّة.

حتّى حاجبي، فقدَا استعدادهما للارتفاع علامةً على الدّهشة! وماذا يستطيع أنْ يدهشني؟! الشّيء الوحيد الذي بقيَ قادرًا على إدْهاشي هو قدرتي على عدم الاندهاش.

أصبحت أرى طرفي حياتي- البداية والنهاية- قريبين للغاية، بيني وبين النّهاية خطوات.

صرتُ أشعر بلسْع عقرب السّاعة على ظهري كلّ خطوة، الوقتُ يمرّ، وعمري يتناقصُ بلا توقّف، لم يبقَ إلّا القليل من الوقت، لا مجالَ للانفعال الفارغ، أو الحديث الفارغ، لا معنى للمتعة، ولا وقت للضّحك..

كان ذلك حتّى عرفتك!

فحين تتكلّم أنْسى العقرب، وأستمتعُ بالثّرثرة، تصير الحياة بسيطةً جدًّا، ولا مضمون لها سواك.

تأخذني من مُعْضلاتي وفلسفتي إلى نِكات المراهقين وحكايات شباب وفتيات الجامعة.

تأخذني من السّاعةِ إلى عالمٍ ليس به زمن، فقط، أنت، وأنا، وابتسامة على شفتي لا تذوي.

تطولُ بنا السّاعات في ذلك العالم، بعضُها أسمعك فيه، وأحيانًا أكتفي بملء عيوني منك.

تمرّ السّاعات التي كنتُ أحسبها ثمينة، فلا أكترث، وتدقّ الأجراس، ولا أسمعُ سوى أنفاسك.

كنحّاتٍ راحتْ أنامله تتحسَّسُ تمثالَه بحذر! فتعلو، وتهبِط، وتدور، حتّى أتمَمَت تكويني، وغرستَ شمسًا في جبيني، وفجّرت نبعًا في صحرائِي، وتنفّست عطرَ ورودِي!

ثمّ ابتسمت، فلثمْت، فبُعِثت، فتحركت، وعرفت.

لَمْ أعرفْ إلّا صانعي ومليكي.

رحلتَ بي عبر الكلمات، فخضتَ بي المعارك، ونصَّبتني ملكةً على كلّ العروش، عزفت لي النّاي عندما أحببت أنْ أراقص الزهور، وغنَّيت لي عندما صمتت الطيور!

رافقتني إلى مجاهلِ الغابات، وتوسّدنا معًا حشائشَها ذات الألفِ لون، والتحفنا سماءها الغاضبة، والتقطت لي عقدًا من نجومها، وتبلّلنا معًا بقطرات الندي!

تشقّقت عروقي من جفاف الحرمانِ وأنا بين ذراعيك، وغمرتني في نهر الحبّ وبيننا ألف ميل.

كنتُ عصفورتك، لم أسألْك أبدًا إلى أين نحنُ راحلان، فقط، أنصِتُ إلى كلماتك، وأدلّي ضفائري في نهر الحبّ، وأقبض بأصابعي على سرّ الحياة.

جعلتَ مُنتهى أحلامي سندوتش فلافل على رصيفِ الميناء وقت الفجر، ووشاحك يلتفّ حول عنقي، فيسكرني عطره.

ربّما أنا امرأتان، واحدةٌ نضجت أكثرَ من اللازم، والأخرى طفلة عشقتْك.

مددتُ يدي إليه بنصفِ رغيف فلافل، وقرن شطة، وذابت ضحكاتُنا العالية بين ضجيج الميناء.



تك تك

- تك.. تك.. تك.. تك.. تك

- يا لها مِن ضجة، تلك التي يُصدرها تسكُّع عقرب الثواني في طُرُقات عمري، يبدو أنَّه مُصرٌّ على إصابتي بالجنون، هل هو مقتنعٌ إلى ذلك الحدّ بأهميةِ إعلان مرور ثانية بالنسبة لي؟! ألا يُخرسه أحدُهم، ليكتفي بإعلانِ مرورِ عام؟!

انتابتني نوبةُ غضب شديدة.

- يبدو أنّني متوتّرة أكثر مِن اللّازم، فالأمرُ كلُّه لا يتعدى مجردَ التهابٍ في الأُذن، أدَّى إلى حساسيةٍ زائدةٍ للأصوات، فمنذ إحالتي للتّقاعد لا أهتمّ بصحتي كثيرًا، الأمرُ لا يحتاجُ لكثيرٍ من الذّكاء.

تصنّعت الهدوء.

- تك.. تك.. تك.. تك.. تك

- ربّما لو دسستُ في أذني قِطَعًا مِن القُطن، تصبح الأمور أفضل؟!

نفَّذتُ فكرتي، لكنّي لم أنجح في إسكات عقرب الثّواني كما توقعت، كلّ ما حدَث أنَّ صوته أصبح كما لو كان قادمًا من أعماقي أنا، لا مِن الساعة.

أخرجتُ القطع القطنية من أذني ورميتُها في سلّة المهملات غاضبة.

- كم السّاعة الآن؟!

نظرتُ للساعة بحذر، متعمّدة تجاهل خطوات عدُوِّي الثقيلة.

- عليَّ أنْ أنام، فلديَّ كثير مما لا يجب إنجازه في الصباح.

أطلقتُ نكتتي السّخيفة، وضعتُ رأسي على الوسادة، واستسلمتُ لنومٍ أرِق.

- تك.. تك.. تك.. تك.. تك

أيقظني من النوم قرْعُ نعال ذلك اللئيم على حائط الزمن.

- مازالتِ التّاسعةَ صباحًا، يبدو أنَّ معركتي معك اليوم طويلةٌ.

قلتُها ورمقتُه بنظرة تحدٍّ.

رنّ جرس الباب

- تُرى مَن يأتيني في ذلك الوقت المبكّر مِن الصّباح؟! لقد سدَّدتُ كلّ فواتيري!

- أمّي.

فاجأتني ابنتي التي لم أرَها منذُ شهور لا أعرف عددَها.

- رحيل؟!

صرختُ في ذهول، ارتميتُ في أحضانها كطفلةٍ تائهة وجدَت أمّها، كمَيِّتٍ بُعثتِ الرّوح فيه، فتذوَّق طعومًا منسية، أو مفقودٍ في جبال ثلجٍ آنس نارًا وحضنًا.

طالَ حضني، حتّى ذابت دموعُها المتحجرة في عيونها بعد طول مقاومة، فهطلتْ غيثًا على بيداء وحدتي.

قضيتُ معها نهارًا، ليس ككلّ نهار، واكتشفتُ للطّعام مذاقًا كان غائبًا عنّي، أزهرتْ رياحيني وبدا للكلام معانٍ أثقل مِن أنْ تحملها الحروف، ولأوّل مرّة أكتشف أنَّ الشّمس تغمر مطبخي بمذاق الحياة.

كانت عيناي متّصلتين بعينيها بحبل شوق، لم يكن يقطعه سوى نظرة كنتُ أضطرّ لإلقائها مِن حينٍ لآخر على صندوق الزّمن الأسود، خوفًا ورجاءً.

كان العقربُ الخبيث يعْدو في دائرته عدْوًا، كثورٍ أصابه هياج مفاجئ، فراح ينهبُ الأرضَ نهبًا حول ساقيته.

فكّرتُ أنْ أستجديه ليتمهّل ويرحم شيبي، لكنّني أعلمُ خبثه، لن يُلقِ بالًا لتوسّلاتي، ولن يرحم، سيندفعُ ذلك الأعمى في طريقه، أيًّا كان حالي.

– كيف حالُ زوجك معك يا رحيل؟ هل مازال يَخرج كثيرًا ويتركك وحدك؟

– حتّى إنْ مكثَ بالبيت، فليس سوى ظِلّ يا أمّي، أقضي لياليَّ وحيدة، أفكّر، أتوقُ للمسة صادقة، أتوق أنْ يَذكرني، أنْ يُشعرني أنّه يراني، ويفهمني، لكنّني أبقى وحدي يا أمّي! يمضي الليل بي، أرقبُ عقربَ السّاعة، وهو يدور.... ويدور..... ويدور..... ويدور، وفي كلّ دورة يقتطعُ من أوراق عمري مِزْقة، وفي نهاية اللّيل أسقطُ في غيبوبتي، تاركةً إيّاه يدور بلا ملل ولا انقطاع، أستيقظُ بعد حين لأنظر.. هل بقيَ من العمر شيء؟!

انْهالت كلماتها على قلبي طعناتٍ نافذة، كتمتُ مشاعري بصعوبة.

– هل حاولتِ الحديث معه بذلك الشأن؟

– ماذا تريدينني أنْ أقول يا أمّي؟! هل أطلب منه أنْ يراني؟ أنْ يشعر بي؟!

– لكنّه رجل كريمٌ ينفق على بيته بسخاء، ويهتمّ بأبنائه، و.........

– ولا يراني.

قاطعتْني صارخةً بحدّة.

أطرقتُ صامتة، وقد تاهت منّي الحروف.

– أذان المغرب يا أمّي، مضطرّة للإياب.

قالتْها دون أنْ ترفع عينيها، كتمتُ دموعي بكلّ قواي.

– هل تريدين شيئًا أفعله قبل رحيلي؟

– شكرًا يا رحيل.

قلتُ باذلةً مجهودًا خارقًا ليخرج منّي الكلام.

وودّعتني الحبيبة بلا وعدٍ بلقاء، تساقَط بنياني وأنا أُلوِّح لها، أغلقتُ الباب، أسندتُ ظهري لثوان، ثمّ التفتُّ إلى غريمي بتحدٍّ.

– تك.. تك.. تك.. تك.. تك

– الآن فقط قررتَ أنْ تتمهّل؟! الآن فقط تزحف ككسيح، تتكئ على عكّاز أملي الضائع؟!

ملأني الغيظ، فقرّرتُ أنْ أحسم معركتي معه، انتزعتُ السّاعةَ مِن الحائط، وألقيتُ بها بقوّة على الأرض. تكسَّر الزّجاج، ومازال الخبيث يدور ويُخرج لي لسانَه، رفعتُها مرّة أخرى وألقيتُها على الحائط بقوّة أكبر، فتهشمتْ أخيرًا، فسقطَ على الأرض مكسورًا، وقد انخرسَ إلى الأبد، تأملتُ بتشفٍّ منظرَه وهو ملقًى صريعًا بلا حراك، ثمّ تنهّدتُ بارتياح.

حدَّقتُ في المرآة، فرأيتُ عمري، وضحكة ابنتي، وأطفالًا صغارًا، وعقارب مجنونة تدور بسرعة، في ساعاتٍ عملاقة، تدقّ بصوت أجراس الكنائس.

أغمضتُ عيني بقوّة، ووضعتُ أصابعي في أذني، فاخترقَ سكوني صوتٌ خفيض، يهمس لي: تك تك.



إعصار

كان الجوّ مطيرًا عاصفًا، وكانت ملابسي المهترئة أضعفَ كثيرًا من أن تقاوم عضّات البرد الشّرسة في جسدي الهزيل.

بدتْ لي من بعيدٍ أضواء دكّان وحيد أصرَّ أن يفتح أبوابَه في أجواء يستحيلُ معها التّفكير في التسوّق.

حثثتُ الخطا نحوه، تتنازعني قرصاتُ الجوع ولسعاتُ الأسفلت المتجمد لقدميَّ العاريتين، حشرتُ نفسي بصعوبةٍ بين صندوق القمامة الكبير وجدار الدكّان، وجدت قطًّا أسود كان قد سبقني إلى ذلك الملاذ، حدق بي بعينيه الخضراوين اللّامعتين بهدوء، ثمّ حرّك ذيله واستكان كأنّما يخبرني ألَّا بأس يا صديق، دعنا نتدفأ معًا.

دسستُ كفّي بين ركبتي وأسندتُ ظهري المنهَك إلى الجدار البارد، سرتْ بي برودتُه كصدمةٍ كهربيّة، لكنّ صندوق القمامة بثّ في قدميَّ بعض الدّفء، يبدو أنّ أحدهم رمى به للتّو قمامة ساخنة، منّيت نفسي بالبحث بها عنْ عشاء بعد أنْ تهدأ رعشات جسدي قليلًا.

قطع سكوني صريرُ إطارات سيارةٍ على الأسفلت، مددت عنقي بفضول من خلف صندوق القمامة، وقفزَ صديقي القطّ فوق كتفي لينظر هو الآخر بفضولٍ أضحكني.

كتمتُ ضحكاتي وأنا أراقبُ عربة من طرازٍ شعبي توقّفت، ونزل منها رجلٌ وطفل أبيض في مثل عمري تقريبًا، حدّقت بكفيَّ السمراوين ورحتُ أحكّهما في ملابسي القذرة وأعيدُ النظر إليهما، ثمّ تساءلت: ترى ماذا كان لونهما الأصلي؟

انتزعني من التّفكير بكاءُ الطّفل وصراخه، والرّجل يقبض على يده بقوّة ويُغريه بالدّخول إلى الدكان.

هدأ الطّفل حين ألهتْ عينيه ألوانُ الحلوى اللّامعة، وبدأ يشير إلى أصناف انْتقاها، فراح العاملُ يرتّبها بمهارة في علبة كبيرة.

دفعَ الرجل الحسابَ وأسرع خارجًا من المحلّ وقد بدت علامات الرضا على وجه الصغير.

عند الباب، خلع الرّجل كوفيّته الصّوفية ليلفّها حول عنق الطفل الذي عادَ إلى تذمّره.

"تُرى أيّهما ألذّ طعمًا؛ الحلوى الساخنة، أم كوفيّة أب حنون وقبضة يده؟

تُرى ماذا يشبه طعم أن تتذمّر طوال الوقت حين تملك كلّ شيء؟"

راقبتهما وهُما يصعدان إلى السّيارة، وقد نسيت أمرَ جوعي القارس، عيناي معلّقتان بطرف الكوفيه الرّاقص مع الريح، وأصابع تقبض على كفّ أبيض صغير، فتعتصرني.

ماتَ الملك

تلك اللّيلة، كانت السّماءُ شديدةَ السّواد، لا أثر فيها للقمر، كأن لم يكنْ قط.. حتّى الرياح، بدتْ كما لو كانت قد هجرتِ الأرض غاضبة بلا رجعة، بدا العالمُ ساكنًا جدًّا، لا أثر لحياة فيه.

نفثتُ بملل آخرَ نفس في السيجارة، ثمّ سحقتُها في سور الشّرفة، حركتُ الوزير على رقعة الشّطرنج حركةً مراوغة.. اعتدتُ أن ألعب الشطرنج مع نفسي، أُعِدّ الخطط، والخطط المقابلة، ألعبُ ببراعة، وأضمن في كلّ دور أنّني حتماً سأنتصر.

وما الفارق بين انتصاري وأنا جالسٌ على هذا المقعد، أو على المقعد المقابل؟

ربّما يظنّ بعضهم أنّ اللّعب بهذه الطريقة سهل، لكن الحقيقة أنّه صعب جدًّا، فحينَ تلعب وأنت تدركُ جيّدًا ما يدور برأس خصمك، وتعرف يقينًا ما ينوي فعلَه في الخطوة القادمة، وخصمُك أيضًا يعرف ما برأسك، يصبحُ من الصّعب جدًّا أن تأتي بحركة مفيدة.

أنْ تكون أنت خصمَ نفسك، هذه هي أشرسُ الخصومة، إنّه اللعب على المكشوف.

أطحتُ بالملك في حركةٍ استعراضية، أُحبّ أن أراه ساقطًا على الرقعة في نهاية الدّور، لا أحمله لخارجها كما يفعل البعض، فمشهدُ ملكٍ صريع بدفعةٍ مسْتهترة من أصبعك، كفيلٌ ببعثِ نشوة ذات مذاقٍ مختلف في أعماقك.

تناهى إلى سمعي صوتُ صرخةٍ نسائية يخالطها بكاء متشنّج وضحكة ذكوريّة زلزلت صمت الليل المطبق.

بالطّبع يستحيلُ تفسير ذلك المزيج المتنافر بغير فكرةٍ واحدة، مزحة ذكوريّة عنيفة. لا أعرف لمَ ذكّرني ذلك تحديدًا بمزحة كنت قد شاهدتُها في فيلم أمريكي، حين قرّر البَطل أن يداعب زوجته بطريقة غريبة، ربّما هي الحياًة المرفّهة الخاوية التي قد تدفع لذلك التفكير الشاذ، أو ربّما هو الملل.

حين قرّر البطل فجأة أن يوهمها أنّه يشكّ بإخلاصها له ليصدمها، ويتلذّذ بمظهر أنثاه الرّقيقة تنهارُ تحت قدميه وتتمسّح بها، وترجوه أن يصدّق براءتها وإخلاصها له.

مازلت أذكرُ دموع البطلة الغزيرة وشلّالَ الحبّ المختلط بالذل الذي انهمر فجأةً من قلبها الصّغير ذاتَ لحظةِ انكسار. نهنهاتُها اختلطت فجأة بقهقهاته العالية وهو يصفّق بنشوةٍ كالأطفال ويرتمي على الفراش، محرّكًا رجليه في نوبةِ ضحك هيستيرية أمامَ عينيها الذاهلتين، ليخبرها أنه كان يمازحها.

لحظتَها غضبت البطلةُ وبدأت تضربه بقبضتها الصّغيرة على كتفه الضّخمة، وتجري خارجَ الحجرة، ووجهُها المدور الصّغير قد استحال إلى اللّون الوردي.

قلت لنفسي:

- لم أرَ دمعًا في عينيك منذُ زمن أيتها الجميلة.

ربّما هي ساديّة مقيتة، أعترف بذلك، لكنها حقًّا لعبة مثيرة.

قطع أفكاري دخولُ زوجتي وهي تحمل قدحَ القهوة كعادتها، وتضعه برقة بجواري.

التفتُّ إليها فجأةً وقد ارتسمتْ على وجهي أماراتُ الغضب الشديد، صفعتُها بقوّة صارخًا في وجهها:

- اكتشفتُ خيانتك أيّتها الحقيرة.

بذلتُ مجهودًا خرافيًّا لكتم الضّحك بداخلي، ومجهودًا أكبر لكي أبدو مخيفًا جدًّا.

انتفضتْ زوجتي فزعةً وارتمت على الأرض بعيدًا عنّي، وراحت تصرخ بهيستيريا مُغمضة العينين وهي تلوّح بذراعيها وكأنّها تدفع عن نفسها ضرباتٍ وهميّةً تأتيها من كلّ ناحية.

شعرتُ بالخجل الشّديد من نفسي لأنّي تسبّبتُ لها في كلّ ذلك الذعر بلحظةٍ واحدة، لقد بدوتُ متوحّشًا حقًّا، لكنّني صدقًا لم أتوقّع ردّة الفعْل المبالغ فيها، بل تصوّرتُ أنّي سأتعبُ كثيرًا في إلقاء العبارات التي سمعتها في الفيلم حتّى أقنع زوجتي أنّي جادّ في اتهامي. لكنّ زوجتي رقيقة جدًّا، وتحبّني بجنون فلم تحتمل الصدمة.

لَمْ أدرِ حقًّا كيف أعتذر عن مقلبي السخيف.

دار كلّ ذلك برأسي في جزءٍ من الثّانية، تقدّمتُ خطوة ناحيتها، ومددت يدي لأساعدها على النّهوض، فإذا بها ترتمي عند قدميَّ، تبكي، وجسدُها ينتفضُ في جنون، وتقول:

- سأعترفُ لك بكلّ شيء.

- تعترفين!!؟

همستُ بها بشفتيْن مرتعشتين.

أصابَ رأسي دوارٌ عنيفٌ، وشعرتُ أنّي أحمل أطنانًا من الرمل على كتفي، فعجز لساني تمامًا عن النطق.

حاولتُ أنْ أحرّك يدي لأشيرَ لها بالابتعاد والصّمت، لكني عجزت عن ذلك.

تلمّستُ كأعمى حافّة السّور، وتركتُ جسدي يتهاوى على المقعد.

وجدتُ نفسي أهوي... وأهوي... وأهوي بسرعة جنونيّة داخل بئر مظلم لا أرى له قرارًا، حتّى وجدت يدي سور الشّرفة الحديدي البارد يلفح أصابعي بنار ثلجية.

عجزتُ عن رفع جفوني، أحسستُ بحالة رفضٍ مطلق للحياة، رهبتُ النّور كما يرهب الطفل الظلام.

كانت لا تزال تتكلّم بجُمل متقطّعة يتخللها بكاء ونشيج، لكني لم أكن أدرك بالضّبط ما تقول، فقد امتلأت أذناي بدويّ طبول عالية، تدق في إيقاع مُرعب، مختلطة بصراخٍ يشبه ذلك الذي يحدث في رقصات القبائل البدائية.

أحسستُ بريحٍ ساخنة شديدة الجفاف تلفح جسدي.

لا أعرف بالضّبط عند أيّة نقطة فقدتُ الوعي، لكن المؤكّد أني فقدته.

حين فتحتُ عينيَّ صفعتني أشعّةُ الشمس فأدركتُ أنني مازلت حيًّا. كنت لا أزال في مكاني على المقعدِ نفسه، لا شيء هنالك سوى صمتٍ مطْبق، وكوب قهوة بارد يحدّق بي ويخبرني أنّ كلّ ما يدور في عقلي الآن لم يكنْ حلماً، لم يكن حلماً قط.

تذكرتُ الفيلم والبطلَ وضحكاته العالية، بعض المشاهد الكوميدية قد تتحوّل لدراما حزينة، فقط إذا تغيّر الأبطال.

سقطتْ عيناي على الملك الصّريع على رقعة الشّطرنج، تذكرتُ نفسي وأنا أطيحُ به بإصبعي بالأمس.

تُرى هل كان عليّ أن أحمله واقفًا إلى خارج الرّقعة؟ على كلّ حال، لقد ماتَ الملك.

فلسفتي وعظامي

لمحتُ أبي يجلس في الشّرفة، يرتدي قميصَه الدّاخلي كعادته، ويبدو بصدره كثيف الشّعر وعضلاته المفتولة وكرشِه الكبير ونظارتِه السّميكة ورأسِه الأصلع؛ بطلًا كلاسيكيًّا لفيلم مصري أصيل من أفلام الستينيّات.

بدا مزاجُه جيّدًا تمامًا، وهو يرتشف الشّاي الساخن، ويتحسّس شاربه الكثّ، ويدندن بانسجامٍ شديد مع أطلال أمّ كلثوم.

"أعطني حريتي أطلق يدي

إنّني أعطيت ما استبقيت شيئا"

– الله الله، يا له من ذوق عال!

قلتُها وقد أجبرت عضلات وجهي الحانقة على رسم أمارات الإعجاب، لكنّني في الحقيقة كنت مضطرًّا إلى النّفاق، فالحياة تحتاج ذلك بعض الأحيان، كما أنّها فرصة طيبة لأتحدّث معه قليلًا عن فلسفتي في الحياة قبلَ أن تسبقني أمّي في استغلال مزاجه الجيّد لتحدّثه عن فلسفة الإنفاق العائلي.

منحتني ابتسامتُه الواسعة شجاعةً لم أرها مُفرطة، فجلست قُبالته، فنظر إليّ بسخرية، وكأنّه يقول: أفهمُ جيدًا ما وراءك.

بادرته بقولي:

- لا شيء أكثر من رغبتي في الدّردشة معك يا أبي.

- لا أظنّ ذلك، يبدو لي جليًّا أنّك تريد زيادة مصروفك كالعادة.

قالها وأطلقَ ضحكة طويلة تشبه ضحكةَ محمد عبد الوهاب المشهورة، فقلتُ في نفسي:

- ليتَ الأمر كما ظننت.

رسمتُ على شفتي ابتسامة وقورة، ثمّ شرعت أتكلّم. لففت به يمنة ويسرة وأدرتُ رأسه الكبير بين أصابعي ككرةِ بلياردو، حدّثته عن تفشي الإجرام والجهل في مجتمعنا، وانتقدتُ تصرّفات الشباب الطائشة.

بدأ أبي يشعرُ تدريجيًّا بقيمتي، وأنّ ابنًا مثلي- رغم كلّ نواقصه- أفضل كثيرًا من نماذج أخرى يعجّ بها المجتمع.

شعرتُ أنّ خطتي قد نجحتْ فانتقلت إلى مستوى أعلى في اللعبة، فوضعتُ ساقًا على ساق، وتقمّصت شخصية حكيم القرية، ثمّ بدأت أحدّثه عن فلسفتي في الانتصار والهزيمة، فقلت له:

هل تعلمُ يا أبي؟ الحقّ أنّني، وبعد أن جرّبت مرارًا طعمي الهزيمة والانتصار، أيقنتُ أنّ الهزيمة ليست مرّة، وأنّ الانتصار ليس الأجمل بشكل مطلق.

تساءل أبي متعجّبًا:

- ماذا تقول؟!

– أقول يا أبي إنّ الطّعم الحقيقي يكمن داخلَ المعركة نفسها، تلك اللّحظات التي تستجمع فيها إرادتَك وأدواتك العقلية والنفسية والجسدية كلّها، لتبلي في معركتك بلاءً حسنًا، تلك اللحظات التي تنتفض فيها عروقُك، وتدقّ قدماك طريقًا في الحياة، تلك الليالي التي تقضيها راهبًا في محرابِ أحلامك، ليس فقط طمعًا في النجاح وخوفًا من الفشل، ولكنها لذّة السعي والكفاح، ولذّة الشعور بكيانك.

تجاهلتُ نظراتِ التعجّب في عينيه وأضفت:

– عندما يسدل السّتار، لن تغيّر نكهة النتيجة كثيرًا من حلاوة الكفاح الخالدة في فمك، ولن ينتقص شيء من اعتزازك بجهدك.

نظرَ أبي إليّ بانبهار، وربّت على كتفي قائلًا:

– ما شاء الله يا ولدي، كبرتَ ونضجت، لم أتوقّع منك ذلك الفهم النّاضج للحياة.

طمأنني اقتناعُه بنظريتي كثيرًا، فاستجمعتُ شجاعتي، وأخبرته ببساطةٍ أنني قد رسبتُ في الثانوية.

والحقّ أنّني لا أعرف كمْ يومًا مرّ بالضّبط منذ أنْ علّقت ساقي في هذا الجبْس اللّعين، لكنّي على أيّة حال، تعلّمت ألّا أتحدّث في الفلسفة، مع أولئك السّطحيّين أكثرَ من اللازم.

الخوف

كانت ليلةً دهماء، غفلتُ فيها قليلًا، وتقلّبت في الفراش كثيرًا، حتى شعرتُ فجأة أني عاجزٌ تمامًا عن تحريك نصفي الأيسر، يا له من كابوس ثقيل!

بدأت أجدُ صعوبةً في التنفّس، حاولت أن أستيقظَ من ذلك الحلم اللّعين، لكنّ ذراعي وساقي كانتا ثقيلتيْن جدًّا.

تسلّل شعاعٌ باهت إلى الحجرة حين فتحت زوجتي الباب برفقٍ شديد خشيةَ إزعاجي، فهي تعلمُ جيدًا ما قد يصيبها لو أيقظتني من النوم.

حاولتُ أن أنادي عليها، لكنّ صوتي انحبس في حلقي ولم يخرج منّي سوى تهتهات لا معنى لها.

نظرتْ زوجتي نحوي بفزع وكأنّها لاحظت ما أنا فيه من قيدٍ على ذلك البرزخ المخيف بين النّوم واليقظة، هُرعتْ إلى زرّ الإضاءة فأنارت الحجرة.

حركتُ رأسي ورفعتُ ذراعي، لكنّي مازلت عاجزًا عن الكلام أو تحريك نصفي الأيسر.

"يبدو أنّه ليس كابوسًا" حدّثت نفسي مذهولًا!

انْسابت من عيني الدّموع فجأة.

مررتْ زوجتي أصابعَها المرتعشة على خدّي، تتأكّد أنّ ثمة دمعًا بلّلها.

صرختْ، وارتمتْ عند قدمي، تبكي وتقبّلهما، وتقول "فداك يا رجلي"!

تبخّر من عقلي ما أنا فيه فجأة، لم أعدْ أذكر سوى ما فعلتُه بها عشرين عامًا، فإخلاصُ مَن آذيته عمرًا لهوَ أشدّ قسوةً مِن غدر مَن أحسنتَ إليه.

مرّ شريط ذكرياتي أمامي، رأيت عيني أبي الصّارمتين الجامدتين المحفور

فيهما تاريخُ وَهَني، بشرته المليئة بالحفر التي كانت تشبه طريقي، أنفه الضّخم القبيح كان جبلًا يسدّ مجرى نهري، بعيدًا قبل المصب.

إذا طالعتني عيناه تجمّدت الدّماءُ في عروقي، خشعت روحي، كذبيحةٍ مرّ على عنقها للتوّ نصْلُ جزار.

اقتطفني الخوفُ من طفولتي قبل الأوان، فدهستني أقدامه.

ولم أكنْ وحدي مَن دهسه الخوف؛ فأمّي كانت ترتجف حين يزأر فجأة

ويناديها، تهرع إليه كجثّةٍ ألقيت من فوق جبل، فهبطت تتقلب

بين الصّخور والأشواك، لا تحيل لنفسها إمساكًا، ولا لطريقها اختيارًا،

وحده الخوف كان يدفعها.

لكنّها كانت مضطرّة له، أسيرةَ اللّقمة التي يدفع بها في حلوقنا.

لم تكنْ أمّي من النّساء اللاتي توّجهنّ الحبّ، لكنّها كانت من أولئك اللاتي أذلهنّ العَوَز، ومتْنَ موتًا بطيئًا في ثلاجة الغربة على فراشٍ بارد وأذن صماء.

كانت العصا هي الجسرَ الوحيد الذي يربطني به، أو قلْ هي الهوّة بين عالمَيْنا.

تعلّمت منذ طفولتي ألّا أقف مكشوف الظّهر، فثمّة ضربة قد تأتيني فجأة، ومضى العمرُ بي مولّيًا ظهري شطرَ حيطان المدينة، وإنْ كانت آيلةً للسّقوط.

تعلّمت أنْ أخشى الصّوت الأجشَّ العالي، وإن كنت على الحقّ!

فمَن ليس له ظهرٌ يُضرَب على بطنه، هكذا علّمتني أمّي، وهكذا صنعني الخوف.

وعندما فكّرت في الزواج، اخترتُ عروسي فتاةً مسكينة، لا ظهرَ لها هي الأخرى، لا لأكون ظهرًا لها، ولكنْ لأجرّب أن أحتلّ مرّة الموقع الأقوى في هذه الحياة، واثقًا أنّ غريمي سيعجزُ عن المقاومة.

ومنذُ ليلة زواجي الأولى، وأنا أتلذّذ بتعذيبها، ما أشدّ متعتي حين كنت أسبّها بأقذع الألفاظ، وأتعمّد إهانتها بلا أدنى سبب، بينما تطأطئ هي رأسَها في ذلّ، وتختفي من أمامي حين أصرخُ في وجهها، أو ينهال كفّي الضّخم على وجهها الصّغير فجأة.

كنت أعلمُ أنها لن تتركني أبدًا، فهي أسيرةُ الفقر- كأمّي-ذلك الماردُ الذي يحني الجباه، ويقتل الإنسانية.

ولماذا لا أكون مخيفًا؟! هل الخوف خُلق من أجلي فقط؟!

قطع الشّريط المارّ برأسي صوتُ نواحها. نظرتُ إليها، كما لو كنتُ أراها للمرّة الأولى، متى داهمت عينيها كلّ تلك التّجاعيد؟ ومتى هزل جسدُها حتى صارت عجوزًا على مشارف الأربعين؟

طالتْ نظرتي العاجزة لها دونَ أن أعرف، ماذا أريد! رحمتك يا إلهي!

إلهي.. متى آخر مرّة ذكرتُه؟! تُرى ماذا يفعل بي؟! يدي، تلك الباطشة، تُرى لو عدتِ لي، ماذا أفعلُ بك؟!

ألم تخبريني يا أمّي أنّ الجبابرة لا يسقطون، والضّعفاء لا ينتصرون!

سقطتْ قُبُلاتها الحارة كماء النّار على قلبي المفزوع. ولأوّل مرّةٍ أفهم المعنى الحقيقيّ للرّجولة، ذاك الذي لم أكنْهُ أبدًا.

وددتُ لو أستطيع أنْ أحتضنها بذراعيَّ فأضغطها على صدري حدّ الإيلام.

تمنّيت أن أستطيع أنْ أرتمي تحتَ قدميها وأعتذر، وماذا يفيد الاعتذار وقد ابيضّ الشّعر، وتهاوت الجفون، وخطّ ظلمي بصمتَه على وجه الفتاة، فأحالها إلى بقايا امرأة!

مضتْ دقائق كالدّهر، وهي صامتة، وأنا أداري عيني منها، ولأوّل مرّةٍ أعرف معنى الخجل.

حاولتُ أن أفكّر في القادم، إنْ كان ثمّة قادم! لكنّ عقلي كان معطّلًا تمامًا، ولا شيء أراه سوى...الحفر في وجه أبي، وأمّي المتكوّمة في الزاوية، والعصا، والخوف.

اختيار

هلمّي يا صغيرة، الموتُ خلفنا، والعذاب أمامنا.

قلتُها لأختي ذاتِ الأعوام الأربعة، فأطلقتْ ساقيها للريح، لا تفهم بالضّبط ممّ تهرب، وإلى أين!؟

أسلمتني فقط كفّها الصّغير وتوكيلًا باختيار المصير، الموت، أو المجهول، أيّهما أخفّ ألمًا.

اقتربتْ أصواتُ القذائف، فصرختْ هلعًا، وضعتُ كفّي على فمها، فابتلعت صرختها، لم تصرّ على الصّراخ كما كانت تفعلُ دلالًا مع أمّي، وكأنما ذابت طفولتُها على صفيح الحرب، وعرفتْ جيدًا متى عليها أنْ تخرس.

لم نتوقّف عن الجري، حتّى بدأت قدما الصّغيرة تخذلانها، فحملتها بذراعي الهزيلتين، واستمررت في الهرب، متغافلًا عن الجحيم الذي يحاصرنا، مستمدًّا الرغبة في الحياة من عينيها البريئتين.

وجريتُ حتّى خذلتني قدماي أنا الآخر، فسقطت.

أسندتُ ظهري المكدودَ إلى الركام، وخفضتُ رأسي لأخبئها، ومَن يرفع رأسه إذا دقّت الحربُ الطبول!؟

رأيتُ على خدّيها المتربين لؤلؤتين تشقّان الطريق من عينيها الجميلتين، دونَ كلام! وكأنّ لغة الحرب قد طغت على كلماتها البيضاء التي تعلّمتها، فنسيتها.

حاولتُ النهوضَ لاستكمال رحلة الهرب، لكنّي لم أجد طاقة بي، فمنذُ يومين لم نذقِ الطّعام.

وضعتِ الصّغيرة رأسَها على فخذي، ثمّ أغمضت عينيها، وبعد ثوان، سقطت قذيفةٌ فجأة، فانتثرت الصّغيرة أشلاء.

صرختُ وضاعَ صوتي بين ضجّة القذائف والطائرات، أليس بإمكاني أن أحرقَ العالمَ كلّه؟ أم الموت أحقّ بالهاربين إلى الجحيم؟

كنت أعلم أنّ الموت قريب، لكن مذاقه حنظل، وضربةُ الفقد تُذهل كلّ مُنتظر.

والآن الموتُ أم المزيدُ من الألم ؟ حسنًا سأختار!

زحفتُ متجاهلًا آلام ساقي المبتورة، انتزعتُ كفّها الصغير من الركام، كلّ ما بقيَ منها، احتضنتُه، أغمضتُ عيني بقوّة، ورقدت في سلام.



الحبل

صرختُ، واندفعتُ بجسدي للأمام لأنقذَ الصّورة من السّقوط، فأمسكتُ بالهواء.

تنهّدتُ في مزيج متناقض من الضّيق والارتياح حين غاصت عيناي في الظّلام، واكتشفتُ أنّني في فراشي.

إلى متى تطاردني هذه الكوابيس؟

أزحتُ الغطاء بعصبيّة، وخرجت إلى الرّدهة، وقفتُ كعادتي أمام الصورة التي تتوسّط الجدار الأزرقَ السّماوي، أتأمّلها بلا ملل.

إنّها الوحيدة التي ارتضيتُ أن أعلّقها على جداري، فبقيت وحدها، تملؤه منذ سنين.

اقتربتُ منها بحنان، ومسحتُ بأصابعي غبارًا وهميًّا عنها، تأكدت من صلابةِ الحبل الذي يحملها، ثمّ عدت أدراجي إلى غرفتي، استلقيت على الفراش، عيناي مفتوحتان، أفكّر في الحبل، وخوفي المرضي من انقطاعه!

دار بيني وبين نفسي حوارٌ طويل، بذلت خلاله جهدًا كبيرًا لإقناعها أنّ الحبل متين، وحاولتُ إخماد صوتٍ ما داخلي، ذاك الذي يخوفني من انقطاع الحبل كلّ ليلة.

قرّرت أن أتوقّف عن التفكير، فلا داعي إطلاقًا للقلق، والصّورة لن تسقط.

مضتْ عدّة ليال بعدها، وقد نجحت في تجاهل التفكير في الحبل، حتّى

استيقظت في منتصفِ الليل صعقة على صوتِ السّقوط.

هُرِعت إلى الرّدهة، وقلبي يكاد يتوقّف عن الخفقان، فوجدت الصورة قد سقطت، وانتثرَ الزّجاج المهشّم على الأرض.

امتدّت يدي دونَ وعي إلى قطعة من الزجاج، وكأنني تصوّرت للحظة أنّ بإمكاني إعادة جمعها، أفقتُ من ذهولي على مرأى خيطِ الدّم الواصل

بين وريدي وبقايا الصورة.

تركتُ قطعة الزجاج تنفلتُ من بين أصابعي، محاولةً إيقاف نزيفي بيدي

الأخرى.

لقد كان الحبلُ متينًا، تحقّقت من ذلك بنفسي عشرات المرّات، تعالت في عقلي أصواتٌ متداخلة تصرخ جميعها مصرّة على دفعي إلى الجنون،هل كنتُ حمقاءَ حين صدّقت أنّ الحبل متين؟

تجاهلت كلّ الأصوات فجأة، التفتّ عائدة إلى فراشي وعلى شفتيَّ ابتسامة غريبة..

– على كلّ حال، لم أعدْ مهدّدة بالسّقوط. نعم،لم أعدْ مهدّدة بالسّقوط.

على البرزخ

مضى وقتٌ طويل على موتي، وقتٌ طويل جدًّا لا أستطيع تقديره، ففي ذلك البرزخ المخيف تموت القدرةً على تقدير الزمن، يبدو متوقّفًا تمامًا وطويلًا جدًّا. لا أعرف بالضبط، لكنّ ذلك كان منذ زمن بعيد.

الغريب أنّ أبي وأمّي المسكينين يصرّان على الاحتفاظ بجثتي!

ها هي في مكانها على فراشي، ترتدي البيجامة الزّهرية نفسها المحلّاة بشريطٍ أبيضَ على الكمّين، والسّلسلة الذهبية القصيرة حول العنق، يتدلى منها مفتاح الحياة. لا يزال شعري البنيّ الطويل منسدلًا بنعومة، يغطي صفحةَ وسادتي كستارةٍ حريرية لامعة، لمعة توحي إلى الرائي أنّني مازلت حيّة.

مازالت عيناي العسليتان مفتوحتين، تبحلقان في اللاشيء، وخدَّاي الورديّان يصرَّان على الإيحاء بنبض الحياة.

مازالتْ أمّي تعتني بالجثّة، وتتحدّث إليها هامسة في كلّ مساء، كما كنت أفعلُ بعروسي طفلة، لا بأس، فهذا خيرٌ من استسلامها لأوجاع الفقد، تلك التي تلقي بنا أحيانًا إلى هاوية الجنون.

مازلت أذكر ليلةَ موتي، كما لو كانت بالأمس.

كان القمر مكتملًا، ساحرًا، تمرّ السّحب الكثيفة ببطء على وجهه، وتتلكّأ بمجون، حتّى تظنّها سوف تلفّه للأبد.

رنّ جرس الهاتف القديم، كان رنينُه ثقيلًا جدًّا، كانفجار في عمق المحيط. رفعت السّماعة على وجل، فأتاني صوتُه عبر الأسلاك حزينًا جدًّا، محشرجًا، تقاتل الكلمات للخروج من حلقه.

أخبرني أنّ طائرته سوف تُقلع بعد دقائق، وأنّه لن يعود، راحلًا إلى وطن جديد، أخبرني أنّ الحبّ وحده لا يكفي، حين تحطّمك كلّ لحظة معاول وطنٍ مسعور، يتلذّذ بالتّمثيل بجثث أحلامك. أخبرني أنّه بقايا رجل، وأن الحبَّ يحتاج أكثر ممّا يملك تقديمه، طلب منّي أن أنساه، وأغلق الهاتف دونَ أن يعطني فرصةً للكلام، للتوسّل، للبكاء، للصراخ، للتّهديد بالانتحار، لم يعطني فرصة لاستجداء الحياة.

ألقيتُ السّماعة من يدي وجريت إلى الشّارع، أبحلق بكلّ العيون، عيناه ليستا من بينها، أبحلق بكلّ الكفوف، كفّه ليست من بينها، أبحلق بالسّماء، أستجديها أن تلفظه، وتعيده إليَّ، أبحلق بأصابعي الباردة، وضفائري المتناثرة. وأتساءل: كيف فعلها فقتلني؟

نصلُ سيف غيابه يلامس عنقي، أرجوك عُد، صرخت بكلّ قوتي، حاصرتني النظراتُ الفضولية والمشفقة.

صرخت بجنون:

- هيّا تابعوا لحظات النهاية، فغدًا تحملون نعشي بأكفّكم الباردة.

سيفُ غيابه ينسحب على عنقي ببطء، أشعرُ بقطرات الدماء تسيل ساخنة، ساخنة جدًّا.

- أرجوك لا تتركني!

صرختُ بها للمرّة الأخيرة، والسّيف يغوص في عنقي.

انسلّت روحي في هدوءٍ عاليًا، رفرفت في السّماء، وأخبرتني أنها ستتبعه، حتّى إلى الجحيم. ابتسمتُ في سعادة وسقطت ميتة.

ومن وقتها وأمّي المسكينة لا تزال تصرّ على دسّ الطعام في فم جثتي، وتحتضنها من آنٍ لآخر، وتبكي، وتدفئها بأغطية ثقيلة، رغم أنّ الموتى لا يشعرون بالبرد!

ولا تزال كلّ ليلة تقرأ على جثتي آياتٍ من القرآن، لعلّ الروح تعود إليها، وهل يحيا الموتى!؟

كثيرًا ما أشفق عليها حين تحتضن جثّتي بقوّة، أتمنى أنْ أطلب منها أن تدفنها وتستسلم للقدر، لكنّ الموتى لا يتكلمون.

الأمر الذي لا أفهمه، أنّ جثتي مازالت تستجيب لشيء واحد فقط، رنين الهاتف الثّقيل، حين يتردّد في أذنيها كانفجار في قلب المحيط، فتتحرك نحوَ الهاتف بشكلٍ آلي، تُخرس الرّنين، ثمّ تعود إلى الفراش، لترقدَ بسلام.



رمية

غمزتْ لي الشّمسُ بغُنْج حين حطَّ ذلك السُّنُونو الصّغيرُ على كفِّي مطمئنًّا، ورفرفَ بجناحَيْه الرَّقِيقين؛ فانتثرت ألوانُهما على صفحتي البيضاء.

غَشِيَتْني خضرةُ البساطِ الذي طالما افترشتُه طفلًا في حقول قريتي الصغيرة، وحُمرةُ درَّاجتي التي طالما ملأتُ بها القريةَ صخبًا وحياة، وزُرقةُ شالِ جدَّتي الذي طالما أدفأني في ليالي الشتاء الباردةِ، وبياضُ عينَيْ جدِّي الذي طالما استبصَر ما لم نكن نراه، وصُفرةُ تلك الكرَّاسةِ التي احتلَّتْ درجَ أبي سنين عددًا، ولم يعلَمْ أحدُنا أبدًا سرَّ ابتسامتِه حين كان يُطالعُها بينَ الفَيْنةِ والأخرى، وسوادُ جدائلِ أمي الحريريَّةِ الطويلةِ، كم مرةٍ سمحتْ لي بنَقْضِها والعبثِ بخصلاتِها، بينما أنا جالسٌ على فَخِذها، غارقٌ بضحكاتي! وبرتقالُ الفلَّاحين واليوسفي في مواسمِه، مُزهرة فرحتهم في عيونِهم، تداعبُ أنوفَنا رائحتُه المُنْعِشة.

سكَنَ جناحا السُّنُونو؛ فسكَنَ تلاطمُ أمواج ذكرياتي، انكمشتْ قطراتُ الألوان في صفحتي وقفزتْ عائدةً كلّ إلى ريشتها، كأن لم تعبثْ بكِياني.

كَفْكَفْتُ دمعاتي، ووشوشتُ السُّنونُو: أنْ رفقًا حين ترحلُ؛ فبينَ رِيشاتِك خبَّأْتُ أحلى أيامي، ومشيتُ إلى طرفِ القرية.

قادتني قدماي إلى ذلك الطّريق القديم، كم تغيّرت ملامحه! فبدا لي غريبًا، أو ربّما بتّ أنا الغريب.

حتّى عيون السّائرين، بدت لي كعيون الدّمى، جامدةً بلا روح، كثير من طلاءِ الوجوه، قليل جدًّا من الابتسامات، ألوان كثيرة في ملابسهم، متنافرة، شاذّة، مفتعلة، تثير غضب عيني، وجنون شعوري.

كثيرون يحملون حقائبَ ملآنة، ترى هل قلوبهم ملآنة كحقائبهم؟! أم فارغة كبيت خرب؟!

ثرثرةُ المراهقين، تخاريف العجائز، نهيقُ الحمير الغاضبة، نداءات الباعة الجائلين على بضائعهم، تجمّعات الأطفال، يلفُّ المكانَ صياحُهم وضَحِكاتُهم ونداءاتُهم، جميعُهم مُتشابهون، متَّسِخةٌ ثيابُهم، حافيةٌ أقدامُهم، مصبوغةٌ بشرتُهم بلون الشمس، ضاحكةٌ وجوهُهم بنكهة الحريَّة، يتسابقون إلى جَمْع الأحجار من جوانب الطريقِ، وقذْفِها في مياه النهر الصغيرِ، أيُّهم يقذف أبْعد.

وجدتُ قدميَّ تسوقانِني لأجلسَ بينهم على السور الحجري القديم، نظروا إليَّ بدَهْشة! وكأن أحدَهم قد أدرك ما يعتملُ في نفسي، فمدَّ يده إليَّ بحجرٍ، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة:

• هيَّا، ارمِ.

أمسكتُ الحجرَ بأصابعي المُرْتعشة، تلفتُّ يَمنةً ويَسْرةً، عدلتُ غطاءَ رأسي، كي أخفيَ شعريَ الأبيضَ، وإنْ كانت تجاعيدُ وجهي ويدي كفيلةً بالوِشايةِ بعمري، على كلّ حال، قبضتُ على الحجر بما تبقَّى من قوّتي،

رميتُه بحماسٍ إلى أبعدِ ما أستطيعُ، بينما تتابعُه عيناي ويصرخ الأطفالُ حولي، فيتوهُ بينَهم صراخُ الطفل السّجينِ، الذي حرَّرْتُه لتوِّي... ونسيتُ ما عدا الآن.

وقفتُ مثلَهم على السّور، طامحًا إلى رَميةٍ أبعدَ، مُطلقًا صيحاتٍ تُشبهُ صيحاتِهم، محرِّرًا ضَحِكاتي الحقيقيَّة من مَعْقلِها السرِّيِّ، كاسرًا كلّ القيود.

رميتُ حجرًا ثقيلًا هذه المرّة، فتحوَّل هدوءُ المياه فجأةً إلى مهرجانٍ من موجاتٍ مُتَدافعةٍ، تحاصرُها الدَّوَّامات، التي تبدأ ثائرةً وتنهكُ كلما ابتعدَتْ.

أمّا لونُها الأزرقُ الهادئُ، فتحوَّل فجأة إلى خليطٍ من درجات اللون، يتناثر ثائرًا في قلب النّهر، ذلك القلب اللَّاهف إلى الثورة.

لا أعرفُ بالضّبط سرَّ اللذة التي اعترَتْني وأنا أقذفُ الأحجارَ، فأُثير بها ساكنًا، وأعيد تشكيلَ السّطح.

لا أعرفُ بالضبطِ سرَّ النَّشْوة التي تسلَّلتْ إلى روحي، مع قفزاتِ قطراتِ المياه كنافورةٍ صغيرة، أتابعُها بشَغَفٍ، وأبحثُ عنها وهي تتسلَّلُ بمكرٍ، عائدةً إلى نسيجِها الأصلي، مندمجةً به كأن لم تَنفَجِرْ منذ لحظات.

تُرى هل تُشبعُ تلك الانفجاراتُ الصغيرةُ رغبةً قديمةً كامنةً في روحي للثّورة والتغيير؟ ترى هل مرأى الحجرِ الساقط بقوة نحوَ الهدف، مثيرًا عاصفةً من الإثارة والتصفيق؛ يُذكِّرني بأهدافي القديمة، التي تسمَّرْتُ عندها سنين، فلم أصوِّب سهامي نحوها أبدًا؟

تُرى هل يملؤني اندفاعُ المياه نحو السّماءِ بالحلم القديم؟

لا أعرف بالضّبط، لكن المؤكَّد أنَّ اللعبةَ دفعت شِراعَ روحي بأنهار الذّكرى، بعيدًا جدًّا.

وعندَ الغروب تفرَّقَ الأطفال، وانتهتِ اللُّعبة، وسكنتْ كلّ الأحجار في قاع النّهر، وعاد السطح صامتًا، يخبِّئُ تحته أسرارَ ثورتِنا.

راقبتُ الأطفالَ من بعيدٍ وهم راحلون، نقاط سوداءُ تتفرَّق بسلاسةٍ؛ لتختفيَ في أعماق القرية، بينما عادَ طفلي العابثُ يختبِئُ في أعماقي، معبِّئًا جيوبي بضحكاته وصيحاته، لأستأنفَ طريقي، وحدي.



أنا العالم

أخيرًا، سأخرج إلى الشّارع مع أمّي، مضى يومان انتظرت خلالَهما أيّة ذريعة للخروج من البيت، نفدَ صبْري وأنا أحلم بنفسي مرتدية فستانَ العيد.

هُرعتُ إلى حجرتي حين أخبرتني أمّي أنّنا سنذهب لبيت جدتي فأخرجتُ فستاني الزهري من الخزانة، وحملته بحرصٍ شديد، وارتديته وأنا لا أكادُ أتمالك نفسي من الفرح.

وقفتُ أمام المرآة أتأمّله للمرّة العاشرة، وأدور بسرعة ليطير ذيلُه الواسع كوردة كبيرة متفتحة.

كانت الزهورُ المنثورة على ذيله تبتسمُ ابتسامات ملكيّة، لا شكّ أنها فخورةٌ أنّ أميرة مثلي تحملها.

جميلةٌ جدًّا أنا في فستان العيد، لا شكّ أنّ انقلابًا سيحدث اليوم حين أخرج على العالم بفستاني.

أخرجني من أفكاري صراخُ أمّي تستعجلني، لملمتُ ضفائري التي لا أتقن جدلها، وجريت نحو أمّي.

جذبتني من ذراعي بعصبيّة واندفعتْ إلى الخارج دون أن تهتمّ بالنظر إلى فستاني، أصابني إحباطٌ شديد، تُرى ما الذي شغل أمّي إلى ذلك الحد؟

كانت أمّي تحثّ الخطى باتجاه بيت جدتي وهي تمسكني من ذراعي، فتضطرّ قدماي الصّغيرتان أن تلهثا كي تواكبا خطواتها الواسعة المتعجلة.

لم يكنْ ذلك ما رسمتُه في مخيّلتي، تصوّرتُ أنني سأمشي على مَهَل، فهكذا تمشي الأميرات، أرفلُ في ثوبي الجميل، تحاصرني نظرات الإعجاب من الآخرين، خافضةً عيني في دلال، رافعة رأسي في كبرياء.

لكنْ عجلة أمّي أفسدتْ كلّ شيء، لماذا لا تفهم أنّه يوم العيد، وأنّ هذا هو ثوبي الجديد؟

تأمّلتُ وجه أمّي الغاضب مضطرّبَ القسمات وعينيها اللتين تخبئان الكثير،لم أفهمْ شيئًا، أطرقت صامتة، وتبعتها في استسلام متجاهلة آلام ذراعي الذي اعتصرته بين أصابعها دون أن تشعر.

وأمامَ باب جدتي، وقفتُ ألهث، محاولةً استرداد أنفاسي، راجعتُ ثوبي بسرعةٍ وعدّلتُ ضفيرتي المفكّكة، لعلي أجدُ نظرةَ إعجاب في عيني جدّتي، لا بأس، إنْ كانت أمّي مشغولة جدًّا.

فتحتْ جدّتي الباب، فارتمت أمّي في أحضانها باكية فلم تنبس جدّتي ببنت شفة، وكأنّها ليست بحاجةٍ لسؤال، وكأنّها تعي جيدًا سبب دموع أمّي، بدا وجهها الجامد كجدارٍ من فولاذ، يسجن خلفه إعصارًا.

دلفتُ إلى الدّاخل وراءهما، وقد بدا أنّ جدّتي لم تلحظ وجودي، جلستُ صامتةً في ركن بعيد، وبدأت أراقب.

مضتْ دقائق طويلة للغاية، ورأس أمّي مرتاح على كتف جدّتي، وكلتاهما صامتة.

رفعتْ أمّي رأسها أخيرًا، وقامت فغسلت وجهها، ثمّ عادت بلا تعبير

على وجهها، وبدأتْ جدّتي الثرثرة وكأنّها تحاول أن تطغى بضوضاء حكاياتها على صمتِ الحزن في قلب أمّي.

حكتْ عن جارتها، وكيف تزعجها بصياحها طوال اليوم، وعنِ ارتفاع أسعار الكهرباء، وخزانتها القديمة التي تحتاج لإعادة طلائها.

المواضيع القديمة المعادَة نفسها، الحكايات نفسها يا جدّتي! المهمّ أنها استطاعت الهربَ من الحديث عن أحزان أمّي، تلك التي اعتدتُها منذ زمن، رغم أنّي لا أفهم كنهها.

وفجأة، لاحظتْ جدّتي وجودي، فنادتني راسمةً على وجهها أمارات

الدّهشة، وكأنّني دخلتُ للتّو.

احتضنتني بقوّة كعادتها، وأغرقتني مطرًا من القُبُلات، تركت ذراعي متراخييْن أثناء ذلك الحضن الذي لم أريده، نظرتْ جدتي لثوبي، ووسَّعت عينيها بانبهار، وقالت: ما أجمل ثوبَك حبيبتي!

في الحقيقة لم أشعرْ بالسّعادة ولا بالفخر، بل بدا لي الأمرُ برمّته تمثيلية سخيفة، بعض الأشياء حين تأتيك متأخّرة، ربما تسبّب جرحًا أعمق من ذلك الذي سبّبه غيابها.

لم أحاول حتّى الابتسام لجدّتي، عدتُ إلى مكاني، لملمت ذيل ثوبي المنفوش، وانزويت صامتة.

نهضتْ أمّي فجأة، وكأنما أفاقتْ من حلم، قبَّلت جدّتي دون كلام، جذبتني مِن ذراعي مرّة أخرى مهرولةً إلى البيت، وقد تغيّرت قسماتها هذه المرّة من الغضب إلى اللّامبالاة، المشترك الوحيد أنّها لم تحاول النظرَ إلى عيني قط.

هرولتُ بجانبها ألاحق خطواتها، وأكتمُ دموعي، لم أفكّر أنّني لم أرفلْ في فستاني، ولا حزنتُ أنّني لم أبدُ أميرة، كلّ ما فكرتُ فيه أنّني أتمنى أن تراني أمّي، وتنظر إلى عينيَّ بكلّ روحها، تغزل لي ضفائري، وترتّب ذيل ثوبي، متناسية غضبَها، تمنّيت أن تُشعرني أمّي أنّني العالم كله، ولو مرّة واحدة.... مرّة واحدة فقط.



أسفيكسيا الحب

أيّها البحرُ مهلًا، فموجك الملهوفُ للِّقاء أسرع كثيرًا من خفقات قلبي.

مهلًا، فموجُك المكسور على أعتاب النهاية، كأنْ لم يكنْ جسورًا عاليًا منذ قطفة عمر، ليحزنني أكثر من كلّ أحزاني.

مهلًا أيّها البحر، فموجُك الراقص بزبدِه الأبيض، كجنيات صغيرة تمسك بذيولِ أثوابها البيضاء، فتعلو وتهبطُ لتحتضن بعضها بعضًا، فتلتحم، ثمّ تنقسمُ من جديد، لتولد منها آلاف الجنيّات، ويستمرّ العرض الراقص على موسيقى القلب.

مهلًا أيّها البحر، فهديرُ أمواجك خوف، ورقصها بهجة، ومهرجان الأزرق خدر، وأعماقُك سرّ قدسيّ، وانتحارك على أعتاب شاطئك انكسار.

مهلًا أيّها البحر، قلبي الصّغير أضعف من أن يلاحق عالمك الزاخر.. قلبي الصّغير يلهث خلف موجِك المَلك انتشاءً، ويغضّ عينيه حين ينكسر إشفاقًا.

أيّها البحر الملك، كيف أقنعتَ أمواجَك أن تسلم تيجانها وتنحني، لتذوبَ على شاطئك في استسلام؟ كيف أقنعتها حقًّا بتنفيذ حكم الانكسار؟

"سلمى"

دوّى صوتُه الجَهْوريّ فجأة، فسقطت من سماء أفكاري كشهاب محترق.

"كعادتِك تقضين الوقتَ تنظرين للبحر تلكَ النظرة الغريبة ولا تفعلين شيئًا ذا قيمة"!

امتلأ قلبي غيظًا، لكنّني آثرت الصّمت، فالجدال معه لن ينتهي إلى شيء ذي معنى.

أينَ العَشاء؟ أين الشّاي؟ عليّ أن ألقّنك طيلة الوقت ما عليك فعله؟" محوتُ من مخيّلتي صورة البحر، واتّجهت إلى المطبخ أجرّ قدمي جرًّا وأتجنّب النّظر لعينيه الحمراوين.

حين تزوّجته، لم أكنْ أعلم أنّه وعاء فارغ، ليس لديه ما يقدّمه، لا شيء سوى غضب غير مبرّر، أو ابتسامة بلهاء، يرسمها على وجهه دائمًا في التّوقيت الخاطئ تمامًا.

وبعد العَشاء البارد، واصلت رحلةَ الصّمت، أنتظرُ موتته الصّغرى، ككلّ ليلة، كي أبدأ الحياة.

ألتهمُ قصائد العشق على معدةٍ خالية، لأتلذّذ بحرقة قلبي، أغوص بين آلافِ الكلمات المكتوبة، لأستمتع بأسفيكسيا الحبّ، أفعل ذلك على خلفيّة سيمفونياتي المفضّلة لموزارت، لعلي أشبع أذني الشّرهتين، أدور كراقصةٍ باليه على إيقاع أقلام أناسٍ لم أرهم، ولن أراهم يومًا، لكنهم في الحقيقةِ أصدقاء حقيقيّون،

أتحاور معهم ساعات طويلة، دون كلام، أقرأ لديستيوفيسكي فأجدُ نفسي الضّائعة، أقرأ لنزار قباني ثمّ أتنهّد تنهيدة طويلة، وأتحسّس أصابعي الباردة..

يتوه عقلي بين كتبِ الفلسفة حتّى أتيه كجُرمٍ صغير في مجرّة الكلمات.

تجري عقاربُ السّاعة الجائعة لالتهام عمري، وتجري عيوني بين السطور تلاحقها، بينما تطفو روحي بدلالٍ على أمواج اللحن..

وينقضي الليل، ككلّ ليل، لم أنمْ منه إلّا قليلًا، وتشرق الشمس، وأعود إلى عدّ ساعات نهاري الطّويل المضطرّة إلى قضائه مع الوعاء الصفيحي ذي الطّبلة العالية، يسيرُ في خيلاء مغطّى بثوبٍ فاخر، تستند يمناه إلى عصا من الأبنوس لها رأسٌ مذهب، توحي إلى الرّائي بزعامة ذلك الرجل، وتوحي لي دائمًا برغبة مرضية في انتزاعها بغتةً من يده وشجّ رأسه بها، ذلك الرأس الذي لا يفعل سوى أنْ يصرخ بلا سبب، أو يرسم ابتسامة بلهاء في التوقيت الخاطئ تمامًا!

حين يستيقظ من النّوم، يبدو كمَن أفاق لتوّه من غيبوبة، يعلو بصوته المبحوح قائلًا في لهجة آمرةٍ ممتزجة بالبلاهة:"الفطار"، ثمّ يعقّب في كثير من الأيام: "ولا تنسي الشاي"

يجلسُ ليلتهم الطّعام على المائدة وكأنّني لست هناك، يتحدّث بالهاتف ويثرثرُ بحكايات تافهة، ويضحك عليها بصوتِه المبحوح غير مبال بوجهي الجامد غير المتفاعل إطلاقًا مع مهزلته الصباحية..

ربّما يعني الانفصال بالنسبة لي نهاية مأساتي، ولكنّه الخوف، الخوف وحده منعني من تلك الخطوة.

حقًّا ليس لديّ تلك الشجاعة اللازمة، سأبقى، سأسكت، ستمرّ الأيام، حيّة أو ميتة، لا يهمّ ذلك، لكنّها في النهاية سوف تمر.

كوْنه لا يراني ليس مشكلة فظيعة جدًّا، وكونه لا يفهمني لن يصنع فارقًا كبيرًا، وكونه لا شيء من الأساس يمكنني تجاوزُه أو عدّه عدمًا، أمّا غضبه غير المبرّر وابتسامته البلهاء، فيُمكنني تحاشي النّظر إليهما بلفت وجهي بسرعة حين تبدرُ منه إشارة. كلّ شيء له حلّ تقريبًا، والحياة أقصر وأتفه من أنْ نعطيها كلّ ذلك الحجم من الاهتمام..

هكذا فكّرت دومًا، وهكذا سقط من عمري خمسة عشر عامًا من ذاكرة الزّمن، قبل أن أقرّر الانفصال وألحق بالقطار، متدفئة بقرار اللاعودة.

كانت عجلاتُ القطار تدور ببطء مخيف، وددتُ لو أنزل من القطار فأدفعُها بكلتا يدي، لتحملني بسرعة، بسرعة جدًّا، بعيدًا عن مقبرتي القديمة.

كان ضجيجُها يؤكّد لي أنّه ليس حلمًا، لقد فعلتها، فعلتها وتحررت..

وددتُ لو أنّ ضجيجها يعلو أكثر، لعلّه يطغى على ضجيج ثورة أفكاري، ثورة نفس تسمرّت على حائط الذّل منذ الميلاد، أخشى أن يسمعَ رأسي أحدٌ ما، فيبلغ عن هرب امرأةٍ ميتة برتبة زوجة، بين أحضانه عرفتُ وحدتي، ومن عينيه الباردتين استلهمتُ مفردات قصائد الرحيل، سألته عيناي فلم

يعطني، ولم أفهم أبدًا إنْ كان جهلًا أو بخلًا، لكن المؤكّد أنّني بين ذراعيه كنت أفقرَ النساء.

يااه! أحاولُ منع نفسي من الغناء بصعوبةٍ بالغة، وأخفي ابتسامتي بمعجزة، يا إلهي، كنت أظنّ أنّ حبس الحزن والدّمع هو أصعب الأشياء، لكنّني عرفت الآن أنّ حبس الفرح أصعبُ كثيرًا. فحين ينبت لك فجأة جناحان، كيف تقدر ألّا تطير!؟

ملتزمة أنا بجلستي الهادئة الوقورة، وكأنّ على رأسي الطير، بينما تملأني طاقةٌ تكفي لإيقاف الأرض عن الدّوران. أخبئها تحت عباءتي وأنظر من شباك القطار. لا أعرف بالضّبط إلى أين أنا راحلة، لكنّنا أحيانًا نصل إلى حدٍّ من الألم يجعل الرّحيل هدفًا لذاته، وكلّما ازداد البعد خطوة، عنى ذلك لنا المزيدَ من الأمان. لا نفكّر في اتجاه خطوتنا، بقدر ما نحرص على جعلها واسعة.

شقّ أفكاري فجأةً صوتُه المبحوح وهو يطلبُ الإفطار، ضحكت من قلبي، وأقسمتُ بلا وعي بأعلى صوتي ألّا أعدّ الشّاي أبدًا، توقّفت عن الضّحك حين انتبهتُ على نظرات المحيطين المندهشة، امرأةٌ وقورة تصرخ فجأةً أنّها لن تعدّ الشاي.

لا بأس، امرأة مجنونة لكنّها حيّة، بالتأكيد أفضلُ من ميتة، في عصمة ثوبٍ فاخر.

براءةُ إبليس

كانت الرّيحُ ماردًا انتابته نوبةُ هياج وحشي، تنتزع الأشجار من جذورها وتلقي بها في نهرِ الطريق، تدفع السّيارات والشّاحنات والحافلات كلعب صغيرةٍ لتتكوّم فوق بعضها، ثمّ تنجرف معًا، أمّا البشر فبدوا كدُمًى صغيرة تعتلي وجهَ الطوفان.

بدتْ خصلاتُ النّخيل مستميتة لتعتلي ظهرَ الرّيح وتهرب، لكن الأرض متشبّثةٌ بالجذور في عناد، تأبى أنْ تطْلقها، لتبيت سجينة في مكانها، ليتها تسمع أنينَ الأوراق السّاقطة وهَنًا في مهبّ الريح.

نظرَ إبليس حوله وكأنّه يرى العالم للمرّة الأولى..

"ماذا سيبقى لي عند النّهاية؟! حين تفقد كلّ الأشياء قيمتها، وتضع الحربُ أوزارها بيننا؟! فراغٌ كبير، يملأني حتى الحافة؟

كفيلمٍ لاهث، صاخب الموسيقى، مزدحم الدّراما حدّ الهوس، سيتوقف فجأة، حينَ يصبحُ استمرار العرض بلا معنى.

أهكذا تبدو النّهايات؟

وأنا وحدي الملعون؟!"

هزّ إبليس رأسَه في عنف، ارتمى على الرّصيف منهكًا، ضمَّ رأسه المبعثرة بكفّيه وضغطَ بقوّة، ثمّ صرخ: "ما الذي فعلت؟!"

انهمرتْ دموعه السّوداء سيلًا قدسيًّا، ما أطهر دموع النّدم، وإن ذرفتها عينا شيطان!

نهضَ متثاقلًا، خطا حاملًا على كتفيه أوزارَ العالم، يحاصره المشهد القديم.

حين تمدّد جسدُ آدم الطيني على الأرض، وامتدّت صفوف الملائكة، لتشهدَ الحدث العظيم.

لحظة رفعَ آدم جفنيه، حين نفخ الله فيه من روحه، فدبّت فيه الحياة.

لحظة أُمرت الملائكةُ بالسّجود، ولحظة خطيئته الكبرى حين رفض أن يفعلَها.

"لحظة كبْرٍ واحدة، نظرة معوجّة واحدة، قرار خاطئ واحد؛ غيّروا المصير، مصيري ومصير بني آدم" صرخَ الشيطان في قهر.

راحَ يحثو التّراب على رأسه، ويصرخ..

"يا ربّ، لماذا أنا وحدي الملعون، وحدي اليائس؟!"

تردّد صدى صراخِه في جنبات السّماء، فلملمت الريح الهوجاء أطرافها واستكانت كنسمةٍ متعبة، وأنشبت قطرات المطر أظافرها في حواف السّحب، مخافة السّقوط، واختبأ القمر وراء الغيوم، وتوارت الكائنات كلّها في ثنايا الأرض، وأطبق الصّمتُ الثقيل على الكون.

اعتدلَ إبليس، مسح دموعَه في خجل، تنفّس بعمق، نهض متظاهرًا أمام نفسِه بالتماسك، وبدأ يفكّر.

مضى في الطّريق، يتأمّل قطع الليل المظلمة، بدتْ له لمعة النّجوم البعيدة أشدَّ سوادًا من الليل نفسه، بدتْ له سحب الغيوم بأشكالها اللانهائية أحرفًا غامضة للغةٍ سريّة، كتبت بها أسرار الوجود، لمح في تراتيل الكروان السّماوية مفرداتٍ مندسَّة من السّحر الأسود، تُتلى لتغلّف قلوب البشر بغلالةٍ أبديّة من الزيف!

لماذا لا أجاهدُ لإصلاح بني آدم، فأنتزعُ من قلوبهم كلّ ما غرستُه من وساوس، لتعودَ طاهرة، ثمّ أعلنُ توبتي، وأسجدُ لابن آدم، ذلك الذي أتعبني.

راقتْه الفكرةُ كثيرًا.

"ربّما تلك فرصتي الوحيدة الممكنة لإصلاح كلّ شيء".

باتَ إبليس ليلتَه يحلم بجيوش من الأبالسة، تصطرع بوحشية مع جيوش من بني آدم. كانت المعركةُ دامية، والجثثُ تتساقط بسرعة جنونية من الطّرفين، كشريط سينيمائي يتمّ عرضه بسرعة شديدة، بلا صوت، كان الإنسانُ يضرب بيديه العاريتين، بينما الأبالسة تتساقط تحت أقدامه، ترفع أيدٍ متوسلة، تستجدي الرحمة، وما مِن مجيب.

فتحَ إبليس عينيه فجأة، فتبخّرت كلّ صور الحلم، حاول أن يسيطر على دقّات قلبه المتلاحقة، أرسل بصرَه في السّماء للحظات، أطرقَ مقهورًا خائفًا، أسند رأسَه إلى الجدار، وانتظر الصبح.

وفي الصّباح سحبَ نفسًا طويلًا، تسلّح بالأمل، وبدأَ رحلته، رحلة استعادةِ صكوك الجحيم من قلوب أهل الأرض.

لماذا لا أبحثُ عن ضالّتي في أقفاص المذنبين؟ هنالك حتمًا أجد الكثير من الشّر... وانطلق الشيطان.

صوّب عينيه حدب اللّافتة العملاقة، التي نقشت عليها صورة السيدة العمياء وهي تمسك بالميزان.

لم يفهم إبليس بالضّبط لماذا أثار مرآها نوبةً شديدة من الضّحك، انتابته بلا قدرةٍ على السيطرة، حتّى دمعت عيناه.

ربّما لأنّ مرآها اختلط في مخيّلته في تلك اللّحظة بمشهد طفلة من أطفال الشّوارع، كانت واقفةً هذا الصّباح في إشارة مرور، ترزح في أغلال رقتها وحاجتها، عيناها بريئتان صافيتان، شعرها الأشعث القصير لا يبدو عليه أنّ يدَ العناية امتدّت إليه ذات مرّة، فستانها الرقيق البالي يعجز بالتأكيد أنْ يقيها لسعاتِ البرد القارسة، تمدّ يدها الخائفة لقائدي السيارات الفارهة، فينهرونها كما يفعلونَ مع قطّة مشردة تطفّلت على موائدهم. ربما إذا دفعتها الحاجة فسرقت، أعدموا فورًا إنسانيتها. ولَمَ لا؟ هذا هو قانون الإنسان.

عادتْ عينا إبليس تتأمّل السيدةَ العمياء حاملة الميزان في سخرية، استجمعَ إرادته وألقى بأفكاره جانبًا، ودلفَ مترقّبًا إلى قاعة المحكمة.

كان المكان مكتظًّا بأكوام البشر، أغلبُهم يحمل فوقَ كاهله عذاباته، ويقبضُ بأصابعه على أملٍ من ماء.

جالَ ببصره يتفحّص الوجوه الشّاحبة والأجساد الهزيلة وارتعاشات الأنامل، وكأنّ العيون تعرف النّهاية مقدّمًا، لكنّ الغريق لا يستصغر قشته أبدًا!

وبين الزّحام اندسّت عيون تحمل شيئًا مختلفًا، قسوة وصلفًا ما، ابتسامات كريهة، وشفاه تنفث مع دخان سجائرها أحلامَ البسطاء.

وفي قفص الاتّهام، وقفتْ تلك السّيدة الخمرية برداء السجن الأبيض، بدتْ في الخمسينيّات من العمر، حاجباها رفيعان مرفوعان لأعلى، عيناها كعيني أفعى تنتظرُ اللّحظة المناسبة للانقضاض على فريستها، أنفها مستقيمٌ تلقي حدّته وشموخه في النفوس برهبةٍ ما، خصلاتها المصبوغة باللّون الأحمر الداكن تتناثر على جانبي الطّرحة في إهمال، تقبض بأصابعها على القفص بقوّة، ثابتة في مكانها كلوحةٍ مرسومة.

طرقَ القاضي المنصّة بمطرقته الثّقيلة، فسكت الحضور.

حكمتِ المحكمة حضوريًّا على المدانة رجاء إسماعيل بالإعدام شنقًا، لارتكابها جرائم خطفٍ وقتلِ سبعة أطفال وبيع أعضائهم لمنظمات دولية، وإحراق عزبةٍ كاملة بإيعازٍ من طوائف دينية متطرفة. رُفعت الجلسة.

ضجّت القاعة بالصّراخ، وتعالى صوتُ بكاء ونحيب، وأسرع رجل خمسينيّ مَهيب الطلعة نحو القفص يمسك بيدِ المتّهمة ويقبّلها وهو يبكي بهيستيريا: "إلّا أنت، لا تتركيني، أقسمتُ عليك ألّا تتركيني"

اقتربَ إبليس منهما وتأمّلهما مليًّا..

"حتّى أعتى المجرمين، ربما يجدُ قلبًا ما في ذلك العالم يعشقه بصدق، يعشقُه رغم كلّ شيء، ربّما لا يرى الدّماء التي تلطّخ يده، ولا يرى الظلمة التي لفّت روحه، لكنّه يرنو كالمأخوذ إلى تلك البقعة من النور، في مكان ما بالقلب، وحدَها تنير له الطريق، وحدَها تجعل للحياة مذاقًا يستحقّ، عجبًا لك أيّها الإنسان، لروحك أسرار... حتّى إبليس يقف أمامها حائرًا!".

على كلّ حال، لن أجدَ أنسبَ مِن قلب تلك المرأة لإتمام مهمّتي، وانسلّ إبليس إلى داخل قلبِها فورًا.

فغَرَ إبليس فاهَه من الذّهول حين أبصر تلالَ القلب السوداء، "كلّ ذلك الشّر في قلبٍ واحد؟!" خطا بحذرٍ يتحسّس طريقه في ظلمة الآثام، ويتلفّت يمنة ويسرةً، يبدو أنّ لديّ عملًا أثقلَ كثيرًا مما حسبت له.

مدّ بصره بين أكوام الآثام، يقلّب بينها بحثًا عن توقيعه، لكنّه....... لم يجد!

اتّسعت عينا إبليس عنْ آخرهما، وصرخ غاضبًا.. "اللعنة، ماذا يعني ذلك!؟"

دسّ إبليس عينيه بغضبٍ في كومة أخرى من الشّرور، وبدأ يقلّب فيها بإصرار، لكنّه لم يجد اسمه قطّ.

كادَ إبليس يُجنّ.. "كلّ ذلك الشرّ لم يكنْ بإيعازٍ منّي؟!، مِن نفسك يا بنتِ آدم؟!"

استمرّ في التّنقيب بإصرار بين الجبال السّوداء وقد تحوّل إلى كتلة مختلطة بين الغضب والذهول.

ترى هل الأسود والأبيض وجهان لنفس العملة؟! يختار القدرُ الوجه الذي يكشفه في لعبة الحياة؟! ومتى يكون للعملة نفس اللّون على الوجهين؟!

تحوّل العالم فجأةً إلى مجموعة من علامات الاستفهام، تُحلِّق به في أفق من خَبال.

قضى إبليس نهارَه ضالًّا في متاهات القلب المظلم، متعثّرًا بين حفر الظّلم، وقد أثخنته نتوءاتُ الكبر بالجراح، يخطو يائسًا حائرًا، وقد بلغ التعبُ منه مبلغه.

ولمّا جنّ الليل وما بقيَ به من أمل؛ لمح إبليس فجأةً طرفًا من ضالّته، خطيئة إنسانيّة وقعت بوسوسته، صكًّا حقيقيًّا من صكوك الجحيم، أخيرًا، تدفّقت الحياة في عروقه من جديد، واختطفَه الشيطان بلهفة، وقرأ: "السّبت ١٤ يناير ٢٠٠٢ الثانية وعشرون دقيقة وخمس وثلاثون ثانيةً بعد الظّهر، سخرت من سِمنة جارتها في حضرة نساء الحارة، ولم تستغفرْ".

زلزال

اهتزّت الأرضُ تحت أقدامنا فجأة، وبدأت الجدرانُ تتراقص على سيمفونية الموت، تسمّرت في مكاني عاجزةً عن النطق، في حين تعالى صراخُ أمّي وإخوتي، وراحوا يردّدون في هلع: "البيتُ ينهار، البيت ينهار".

جذبتْني أمّي إليها من ذراعي، بينما قبضت يدُها الاخرى على يد أختي الأكبر منّي.

قبضتُ بدوري بقوّة على دميتي، وهُرِعنا جميعًا إلى السلم، تتساقط الحجارةُ من حولنا، وتتغشّانا أكوام الغبار، ويطنّ في آذاننا نداء الموت.

كانوا كلّهم يصرخون، ولكنّني كنت متبلّدة تمامًا، ربّما لأنّني في العادة لم

أشعرْ يومًا بالأمان، ولا تعلّقت بشيء قطّ في الحياة، حتى صار الموت والحياةُ لديّ سواء.

خرجنا جميعًا من البيت سالمين، وراقبنا تداعيه من بعيد، جزءًا جزءًا، ومع كلّ انهيار، كانت أمّي تصرخ بحُرقة. كانت العيون مندهشةً أمام لامبالاتي بمشهد السّقوط، فانزويت صامتةً أرقبُ من بعيد، وأنتظرُ شيئًا ما.

وانتقلنا للعيش في بيت خالتي إلى حين العثور على مأوًى آخر، وعرفتُ في ذلك البيت إجاباتِ أسئلةٍ كثيرة، طالما تردّدت في عقلي الحائر.

عندما حان وقتُ النّوم في ليلتنا الأولى، شاهدت ابنةَ خالتي التي كانت في مثل عمري تجري ناحية أمّها، فتلقّفتها في حضنها، وأغرقتْها بالقُبُلات، ثمّ همست لها:

– تصبحينَ بخيرٍ حبيبتي.

شعرتُ بقشعريرةٍ تسري في جسدي، وخفقانٍ شديد بالقلب، ولأوّل مرّة أدرك ما الذي ينقصني بالضبط.

ربّما لاحظت خالتي شحوبي في تلك اللّحظة، ربما تصوّرت أنّ السّبب هو ظروفنا الجديدة، فاقتربت منّي واحتضنتني.

لم أستطعْ منع دمعاتي من الانْتحار على سفوح وجهي، إذْ لم أعرف قَبْلًا مذاقَ الأمان، وعندما ذقتُه بدا لي كثمرةٍ شجرةٍ محرّمة. تركتُ حضنها الدّافئ يخطّ سطوره في حكايتي، وتركت روحي تمرحُ في السّماء لحظات،كان شعورًا أذوقه للمرّة الأولى، وددت لو أنّه استمرّ حتّى نهاية العمر، فهل في الحياة ما يستحقّ أن نعيشَه أكثر من ذلك؟

تمنّيت أن أمدّ ذراعيَّ وأربّت بقوّة على ظهرها، كما تفعل هي، لكنّني كنت غارقةً في دوّامةٍ من الخجل والتّيه، فتركت نفسي لها كغريقٍ لا يعرف السّباحةَ احتضنه الموجُ بلا مقاومة.

عندما أفلتتني من بين ذراعيها، أفقتُ فجأةً من سكرتي، لملمت شتات روحي، وهبطتُ على الأرض، لكنْ بعد أن بدا لي عرْيُ ضعفي، فطفقت أخصفُ عليه من ورقِ كبريائي.

وقضيتُ ليلتي أتقلّب في فراشي، وأفكّر...

لماذا لم تحتضنني أمّي قطّ؟ لماذا لا تبتسمُ عينا أمّي؟ لماذا لا تناديني حبيبتي؟

احتضنتُ دميتي ذاتَ الشّعر الأحمر الطويل والعينين الزرقاوين، وألصقت وجهي بوجهِها لأتنفّس أنفاسها؛ لعلّي أشعر بالأمان، وغرقتُ في أحلامي سريعًا.

حلمتُ أنّني وحدي في عالمٍ فارغ إلّا من مساحات ثلجيّة ممتدّة بلا نهاية، وفجأة تظهر أمّي، أمدّ إليها يديّ خائفةً مرتعدة أستغيث، أقتربُ منها، ألقي نفسي في حضنها، فلا أجد إلّا السّراب، فأسقط على الأرضِ بين الثلوج، ولا دِثَار أجدُه إلّا الخوف.

هببتُ من نومي خائفة، أحاول التقاطَ أنفاسي المتسارعة، مسحتُ قطراتِ العرق على جبيني، غادرت فراشي، قابضةً بقوّة على دُميتي، وقرّرت أن أخرج إلى الشرفة.

كان القمرُ بدرًا تلك الليلة، يحاول الاختباء بين الغيوم، لكنّ عينيه كانتا تطلّان عليّ مِن فرجةٍ بينها، تحدّقان بي، وتحْكيان لي الكثير.

هبّت نسماتُ اللّيل باردةً تلفح وجهي المتعرّق، فسرت رعدةٌ خفيفةٌ في أوصالي، حاولتُ لملمة ثيابي حولَ صدري ورقبتي، والهربَ من صورة أمّي الملتحفة بالسّواد منذ فارقنا أبي، لكن نظراتها النّارية حاصرتني.

بدأتْ أطرافي تتجمّد من البرد، لم أستطع أن أميّز إنْ كان الجوّ باردًا فعلًا أم إنْ كانت رياحٌ ثلجيّة تهبّ من ثنايا روحي التائهة!

فقرّرت معاودةَ الهرب إلى النوم.

مكثتُ طوالَ ليال متوالية أفكّر إنْ كان عليّ أن أواجه أمّي بهواجسي وأفكاري، هل أخبرها أنّني أحتاج إليها؟

لم أجدْ بداخلي الشّجاعةَ الكافية لفعل ذلك، فطويت قلبي على أسراره، وآثرتُ الصمت.

تركنا بيتَ خالتي بعدَ أيّام، لنعيش بمنزل جدّي القديم وحدنا.

وعادتْ حياتنا تقريبًا كما كانت، تثرثر أختي من حينٍ إلى آخر عن ذكرياتِ يوم الزّلزال، بينما أشرد أنا في زلزال آخر، أصابني وحْدي، دون أن أتفوّه حرفًا.

مرّت سنواتي الجرْداء، والحلمُ المقيت نفسُه يراودني كلّ بضع ليال، فأستيقظُ منه فَزِعة، حتّى حملت ابنتي بين ذراعي، فاختفى ذلك الكابوس.

وكلّما احتضنتُ ابنتي، تذكّرت عيني أمّي القاسيتين، ووجهها الجامد، وبرودةَ يديها؛ فأطبق ذراعيَّ حولَ ابنتي بقوّة، وألصق وجهي بوجْهها لأتنفّس أنفاسها، في حين كانت تراقبني من بعيدٍ عينا دميتي القديمة ذاتِ الشّعر الأحمر الطويل والعينين الزرقاوين، المحنّطة منذ سنين على الرّف، أسمعها تناديني وتشْتاق، فأختلسُ لحظاتٍ بعيدًا عن الأعين، لأضمّها بقوّة، وأبكي.